تأملات في سورة البلد

دراسة تفسيرية تحليلية

دراسة تفسيرية تحليلية

دكتور

كمال سيداحمد إسماعيل العبد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام/١]،: **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** [الحديد/٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عَلَّمَ القرآنَ، وَجَعَلَهُ مُعْجِزَةَ خَاتَمِ أنبيائِهِ باقيةً مَا بقي الزَّمَانُ: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** [الحجر/٩]، **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [المائدة/١٥، ١٦].

وأشهد أنَّ نَبِيَّنَا محمداً عَبْدُهُ ورُسُولُهُ، أيَّدَهُ بالآيات البَيِّنَاتِ والمعجزات الواضحات، وأنزل عليه: **كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}** [الزمر/٢٣].

وبعد

فإنَّ الله–ﷻ– أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ، رحمةً للعالمين، وبشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للمخالفين: **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**[الإسراء/٩، ١٠]، وهو الكتابُ المُبِينُ المُنَزَّلُ على قَلْبِ النَّبِيِّ الأمين، ليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ولينقذهم من الكفر والظُّلْمِ والفجور: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [إبراهيم/١]، فسبحان مَنْ أودع كِتَابَهُ حِكْمَةً وحِكَماً، وترغيباً وترهيباً ً، وَجَعَلَ كُلَّ بليغٍ عن الإتيان بسورة مثله حَسِيراً: **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ**

وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء/٨٨]، فَلا شَرَفَ إلا وهو السَّبيلُ إليه، ولا خَيْرَ إلا وهو الدَّالُ عليه.

وقد أكرمني الله-ﷻ- وأنعم عَلَيَّ بأنْ جعلني منتمياً إلى مَنْ يعملون في مجال دراسته، وهي- والله مِنَّةٌ عُظمى- أسألُ اللهَ-ﷻ- أنْ يُعينني على تحقيق مقتضاها، فيوفقني للعمل بما في التَّنزيل الحكيم، والتأدب بآدابه، وأنْ يجمع لي وللمسلمين به خير الدنيا والآخرة، فإنَّهُ أهل التقوى وأهل المغفرة.

وما أنا بصدده- بعون الله وتوفيقه- إنَّمَا هو جهدٌ متواضعٌ أَضَعُ به لَبِنَةً فى صرح الدِّراسات القرآنية فى مجال تفسير القرآن الكريم، وذلك من خلال تفسير **(سورة البلد)**.

وقد اتَّبَعْتُ في دراسة هذه السُّورة الكريمة وتفسيرها المنهج التالي:

أولاً: قَدَّمْتُ للسُّورة بمدخلٍ يتضمن نزولها، وعدد آيها وكلماتها وحروفها، وترتيبها، ومناسبتها لِمَا قبلها، ومقاصدها وأغراضها.

ثانياً: انْتَقَلْتُ إلى موضوع السُّورة، وبيان ما تهدف إليه، فقسمتُها إلى موضوعات متعددة على حسب ورودها في السُّورة الكريمة، فذكرتُ الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً بعد ذِكْرِ عنوانٍ مناسبٍ لها.

ثالثاً: ذكرتُ الآيات المراد تفسيرها مُرَقَّمَةً بين قوسين.

رابعاً: قَدَّمْتُ وجه المناسبة بين يدي آيات السورة الكريمة، لأنَّ آي القرآن مرتبط بعضها ببعض، حتى كأنَّهَا كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني.

خامساً: بَيَّنْتُ ما يتعلق بالآيات مما يُعين على فهمها، والاستفادة بما فيها من توجيه وإرشاد، وعِبَرٍ وعظات، وذلك ببيان ما يلي:

تفسير الآيات الكريمة– أسرار التعبير والتَّقديم والتَّأخير– أقوال العلماء مع التوفيق بينها أو الترجيح بالدَّليل والحُجَّةِ والبرهان– المعنى العام للآيات الكريمة– الدروس والعبر المستفادة من آي السُّورة الكريمة.

سادساً: خَرَّجْتُ الأحاديث والآثار من كتبها المعتمدة، ذاكراً الكتاب والباب، والجزء والصَّفحة، ورقم الحديث أو الأثر إنْ وُجد.

سابعاً: ذَيَّلْتُ البحث بخاتمة ضمَّنْتُهَا أهم النَّتائج، ثم ذكرتُ فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وبعد: فهذا جهدي، فما كان مِن صوابٍ فمِن الله–ﷻ–، وما وقع مِن خطأ أو تقصيرٍ فَمِنَ نفسي ومِن الشَّيطان، وكُلُّ إنسانٍ عُرضةٌ للخطأ والنِّسيان، وكُلُّ عملٍ مَشُوبٍ بالنُّقصان، والكمال للكبير المُتَعَالِ: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ [النساء/٧٩].

واللهَ–ﷻ– أسألُ أنْ يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، أدخره عنده ليوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنونَ، إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، إنَّهُ على ما يشاء قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ: ﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [الممتحنة/٤]، ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود/٨٨].

دكتور

كمال سيداحمد إسماعيل العبد

مدخل لدراسة السورة الكريمة

ويشتمل على ما يلي:

أولاً: نـزولها.

ثانياً: عدد آياتها وكلماتها وحروفها.

ثالثاً: ترتيبها.

رابعاً: مناسبتها لِمَا قبلها.

خامساً: مقاصدها وأغراضها.

أولاً/ نـزولها:

سورة البلد: مَكِّيَّةٌ(١)، وَحَكَى الزَّمخشري والقرطبي والشوكاني الاتفاق عليه(٢)، قال الواحدي وابن الجوزي والرَّسعني: " مَكِّيَّةٌ بإجماعهم "(٣) ا.هـ، وقال ابن عطية وأبو حيان والثَّعالبي: " مَكِّيَّةٌ في قول جمهور المفسرين "(٤) ا.هـ، وقيل: مَدِنِيَّةٌ بتمامها(٥)، وقيل: مَدِنِيَّةٌ إلاَّ أربع آيات مِنْ أَوَّلِهَا(٦)، واعترض كِلا القولين بأنَّهُ يأباهما قوله–ﷻ– في مطلع السورة ﴿**بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾– إذ المقصود بهذا البلد مكة– (٧).

قال ابنُ عاشور: " حَكَى ابنُ عطية عن قومٍ: أنَّها مَدِنِيَّةٌ، ولَعَلَّ هذا قول مَنْ فَسَّرَ قوله –ﷻ–: ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ [البلد/٢] أنَّ الحِلَّ: الإذْنُ له في القتال يوم الفتح، وحَمل قوله–ﷻ– ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ**﴾ على معنى: وأنت الآن حِلٌّ، وهو يرجع إلى ما روى القرطبي عن السدِّي وأبي صالح وعُزِيَ لابن عباس(٨)، وقد أشار في (الكشاف) إلى إبطاله بأنَّ السورة نزلت بمكة بالاتِّفاق(٩)، وفي رَدِّهِ بذلك مُصادرة، فالوَجْهُ أنْ يُرَدَّ بأنَّ في قوله–ﷻ–: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ إلى

(١) بحر العلوم (٥٥٩/٣)، الكشف (٢٠٦/١٠)، البيان في عد آي القرآن ص (٢٧٤)، تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، معالم التنزيل (٤٢٦/٨)، الكشاف (٧٥٣/٤)، التفسير الكبير (١٦٤/٣١)، تفسير العِزّ (٤٥٣/٣)، مدارك التنزيل (٢٧٤/٤)، لباب التأويل (٢٤٨/٧)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٨)، بصائر ذوى التمييز (٥٢٠/١)، اللباب (٣٣٨/٢٠)، تفسير الجلالين (٨٠٨/١)، إرشاد العقل السليم (١٦٠/٩)، السراج المنير (٣٩٢/٤).
(٢) الكشاف (٧٥٤/٤)، الجامع لأحكام القرآن (٥٩/٢٠)، فتح القدير (٤٤٢/٥).
(٣) التفسير البسيط (٧/٢٤)، التفسير الوسيط (٤٨٨/٤)، زاد المسير (١٢٦/٩)، رموز الكنوز (٦٢٧/٨).
(٤) المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، الجواهر الحسان (٤١٤/٤).
(٥) المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، الجواهر الحسان (٤١٤/٤)، حاشية الشهاب (٣٦٠/٨)، روح المعاني (١٣٣/٣٠).
(٦) الإتقان (١٠٥/١)، حاشية الشهاب (٣٦٠/٨)، روح البيان (٤٣٢/١٠)، روح المعاني (١٣٣/٣٠).
(٧) ينظر الإتقان (٧٦/١)، حاشية الشهاب (٣٦٠/٨)، روح المعاني (١٣٣/٣٠)، قال الشهاب (٣٦٠/٨): " وأمَّا احتمالُ نزولها بمكة بعد الهجرة فتكون مَدَنِيَّةٌ على قَوْلٍ، فَبَعِيْدٌ " ا.هـ
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٥٩/٢٠).
(٩) الكشاف (٧٥٣/٤).

قوله–ﷻ– ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ [البلد/٥–١١] ضمائر غَيْبَةٍ يَتَعَيَّنُ عَوْدُهَا إلى الإنسان في قوله–ﷻ– ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد/٤] وإلاَّ لَخَلَتِ الضمائرُ عن مُعَادٍ "(١) ا.هـ

وعليه: فالذي تطمئن إليه النَّفْسُ، أنَّ سورة البلد مِن السور المكية الخالصة، ولا يُوجَدَ دليلٌ يُعتمد عليه يُخالف ذلك(٢).

ثانياً/ عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

سورة البلد عشرون آية(٣) في جميع العدد بلا خلاف(٤)، قال الداني: " وهي اثنتان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وأحد وثلاثون حرفاً "(٥) ا.هـ

ثالثاً/ ترتيبها:

سورة البلد هي الرابعة والثلاثون في عداد ترتيب نزول السُّوَرِ، نزلت بعد سورة « ق »، وقبل سورة « الطارق »(٦)، وأمَّا ترتيبها في المصحف فهي السُّورَةُ التِّسْعُونَ، وهي بعد سورة الفجر، وقبل سورة الشمس.

رابعاً/ مناسبتها لِمَا قبلها:

ترتبط سورة البلد بسورة الفجر من وجوه ثلاثة:

الوجهُ الأَوَّلُ: أنَّهُ لَمَّا ذَمَّ في سورة الفجر مَنْ أَحَبَّ المالَ، وأَكَلَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمَّاً، ولَمْ يَحُضْ على طعام المسكين، فقال–ﷻ–: ﴿**كَلا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ [الفجر/١٧–٢٠]، ذَكَرَ في سورة البلد الخِصَالَ التي تُطلب مِنْ صاحبِ المَالِ، مِنْ فكِّ الرَّقَبَةِ، والإطعامِ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ، فقال–ﷻ–: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا**

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٥).
(٢) التفسير الوسيط للطنطاوي (١٥/٣٩٧).
(٣) بحر العلوم (٣/٥٥٩)، الكشاف (٤/٧٥٣)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٥٩)، التفسير الكبير (٣١/ ١٦٤)، رموز الكنوز (٨/٦٢٧)، مدارك التنزيل (٤/٢٧٤)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، إرشاد العقل السليم (٩/١٦٠)، روح البيان (١٠/٤٣٢)، فتح القدير (٥/٤٤٢)، التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٥).
(٤) البيان في عَدِّ آي القرآن ص (٢٧٤)، حاشية الشهاب (٨/٣٦٠)، روح المعاني (٣٠/١٣٣).
(٥) البيان في عَدِّ آي القرآن ص (٢٧٤).
(٦) هذا بناءً على رواية ابن عباس–ﷺ– في ترتيب السُّور القرآنية حسب النُّزُولِ، وقد أخرج هذه الرواية ابنُ الضريس بسنده في كتابه المسمى (فضائل القرآن) ص (٣٣) الأثر (١٧)، وينظر الإتقان (١/٢٦، ٢٧).

أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد/١١-١٦](١).

الْوَجْهُ الثَّانِي: أنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ في سورة الفجر ابتلاءه للإنسان بحالةِ التَّنْعِيْمِ وحالةِ التَّقْدِيْرِ، وذَكَرَ من صفاته الذَّميمة مَا ذَكَرَ، وما آل إليه حَالُهُ وَحَالُ المؤمنُ، فقال-ﷻ-: **﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا. كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى. يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي. فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** [الفجر/١٥-٣٠]، أَتْبَعَهُ في سورة البلد بنوعٍ مِن ابتلائه ومِن حالِهِ السَّيْئِ ومَا آلَ إليه في الآخرة، فقال-ﷻ-: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ. أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا. أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ. أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ. فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}** [البلد/٤-١١]،: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}** [البلد/١٩-٢٠](٢).

الوجهُ الثَّالِثُ: أنَّهُ لَمَّا خَتَمَ سورة الفجر ببيان حال النَّفْسِ المطمئنة، فقال-ﷻ-: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي}** [الفجر/٢٧-٣٠]، ذَكَرَ في سورة البلد طريق الاطمئنان، وحَذَّرَ مِن ضِدِّهِ، وهو الكفر بآيات الله ومخالفة أوامره، فقال-ﷻ-: **﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}** [البلد/١١-٢٠](٣).

خامساً/ مقاصدها وأغراضها:

---

(١) ينظر أسرار ترتيب القرآن ص (٢٢)، روح المعاني (١٣٣/٣٠)، تفسير المراغي (١٥٥/٣٠)، التفسير المنير (٢٤١/٣٠).

(٢) ينظر البحر المحيط (٤٦٩/٨).

(٣) ينظر روح المعاني (١٣٣/٣٠)، التفسير المنير (٢٤١/٣٠)، تفسير المراغي (١٥٥/٣٠).

يدور محور سورة البلد حول التَّنويه بشأن مكة، لشرفها وحرمتها، ووجود البيت المعظم بها، وتعداد نعم الله–ﷻ– على الإنسان حتى يَرْجِعَ عن عصيانه وغروره، ويُخْلِصَ العبادة لِخَالِقِهِ، وتهويل عَقَبَةِ الصِّرَاطِ، وبيان النَّجاة منها، وبيان حسن عاقبة المؤمنين الأخيار، وسوء عاقبة الكافرين الأشرار، وتفصيل ذلك فيما يلي:

– بدأت السُّورةُ الكريمة بالقسم بالبلد الحرام– مَكَّةَ أمِّ القُرَى– تنبيهاً على عُلُوِّ قَدْرِهَا، سواء في حال الإحرام أو الحِلِّ، وتنويهاً بموطن النبي–ﷺ–، وتعظيم تحريم إيذائه في البلد الأمين، ثم ذَكَرَت المُقْسَمَ عليه، وهو أنَّ حَالَ الإنسان في الدُّنْيَا في نَصَبٍ وَتَعَبٍ: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد/١–٤].

– ثُمَّ أَرْدَفَت السُّورة ذلك بالإخبار عن خُلُقٍ ذميمٍ في الإنسان، وهو اغتراره بقوته، مما حَدَا بكفار مَكَّةَ الَّذين اغترُّوا بقوَّتهم أَنْ يعاندوا الحقَّ، ويُكَذِّبُوا رسولَ–ﷺ–، وينفقوا أموالهم في المفاسد والشرور، وهو شأن المفتونين المغرورين بِمَالِهِمْ وغِنَاهُم: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا. أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**﴾ [البلد/٥–٧].

– ثُمَّ ذَكَّرَتْ السُّورَةُ الإنسانَ بما أنعم الله عليه من العينين واللسان والشَّفتين، وبيان طريق الخير والشَّرِّ لَهُ: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد/٨–١٠].

– ثُمَّ أبانت للإنسان ما يعترضه من الأهوال والمصاعب يوم القيامة، وطريق اجتيازها بالإيمان، والعمل الصالح، وإنفاق المال في جهات البِرِّ والخير، ليكون من الأبرار السعداءِ أهل اليمين: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ [البلد/١١–١٨].

– ثُمَّ قابلت السُّورَةُ ذلك بذكر الأشقياء الفُجَّارِ أَهْلِ الشِّمَالِ، الَّذين كفروا بآيات الله، وبهذا يَتَمَيَّزُ المؤمنون عن الكفار، وَيَتَبَيَّنُ مآل الفريقين، فالمؤمنون هم أصحاب الجَنَّةِ، والكافرون هم أصحاب النَّارِ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ**﴾ [البلد/ ١٩–٢٠].

تفسير السورة الكريمة

خَلْقُ الإِنْسَانِ فِي كَبَدٍ

قال–ﷻ–: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** (١) **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** (٢) **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** (٣) **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** (٤)﴾ [البلد/١–٤].

إِنْ قِيلَ: قوله ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ يتبادر من ظاهره أَنَّهُ–ﷻ– أخبر بأَنَّهُ لا يقسم بهذا البلد، الذي هو مكة المكرمة، مع أَنَّهُ–ﷻ– أقسم به في قوله من سورة [التين/٣]: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾.

والـ جواب: أَنَّ قوله ﴿**لا أُقْسِمُ**﴾ قَسَمٌ مُؤَكَّدٌ، وليس نفياً للقسم، فهو عبارة من عبارات القسم(١)، والمعنى: أُقسم بهذا البلد(٢)، لأَنَّ العرب تُدخل (**لا**) على أقسامها لتقوية الكلام وتأكيده، فتقول: (لا والله ما كان كذا) و (لا والله لأَفْعَلَنَّ كذا)، وقد نَزَلَ القرآن الكريم بلغتهم(٣).

قال أبو العباس أحمد بن سريج(٤): سأل رجلٌ بعض العلماء عن قوله–ﷻ: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا ٱلْبَلَدِ**﴾ [البلد/١]، فأخبر أَنَّهُ لا يقسم بهذا، ثُمَّ أقسم به في قوله–ﷻ– ﴿**وَهَذَا ٱلْبَلَدِ ٱلأَمِينِ**﴾ [التين/٣] ؟ فقال ابنُ سريج: أيُّ الأمرين أحبُّ إليك أُجِيبُكَ ثم أَقْطَعُكَ، أو أَقْطَعُكَ ثم أُجِيبُكَ ؟ فقال: بل اقْطَعْنِي ثم أَجِبْنِي، فقال: اعلم

---

(١) ينظر تفسير جزء عم ص (٢٤)، تفسير المراغي (١٥٥/٣٠)، أسلوب القسم ص (١٣)، التفسير المنير (٢٤٥/٣٠)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٨٨/١١).

(٢) فَإِنْ قِيْلَ: كيف يقول اللهُ–ﷻ–: ﴿ **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ وأنتم تقولون: معناها: أُقسم بهذا البلد، فقلبتم النفي إثباتاً ؟ فالجواب: أنَّ الحامل على ذلك: أنَّ الله–ﷻ– أقسم بالبلد، حيث قال–ﷻ–: ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين/١–٤].

(٣) ينظر بيان المعاني (٢٣٧/١)، التفسير المنير (٢٤٥/٣٠).

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي، فقيه الشَّافعيَّةِ في عصره، مولده ووفاته في بغداد، سمع الحسن بن محمد الزعفراني، وعباس بن محمد الدُّوري، وأبا داود السجستاني، وروى عنه أبو القاسم الطَّبراني، وأبو الوليد حَسَّان بن محمد الفقيه، توفي سنة ٣٠٦هـ. ينظر الوافي بالوفيات (١٧٠/٧، ١٧١)، العِبَرُ فِي خَبَرِ مَنْ غَبَرَ (٤٥٠/١)، طبقات الشَّافعيَّةِ الكبرى للسُّبكي (٢١/٣) وما بعدها.

أنَّ هذا القرآن نزل على رسول الله-ﷺ- بحضرة رجال، وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أنْ يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً، فلو كان هذا عندهم مناقضة لَتَعَلَّقُوا به وأسرعوا بالرَّدِّ عليه، ولكن القوم عَلِمُوا وَجَهِلْتَ، فلم ينكروا منه ما أنكرتَ، ثم قال له: إنَّ العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها(١).

وعليه: فإدخالُ لفظة (**لا**) على القسم مستفيضٌ في كلام العرب وأشعارهم, فتقول: لا والله، وتقول: لا وربِّ الكعبة، ويريدون: وَرَبّها، والقرآن نزل بلغتهم، قال امرؤ القيس الكندي(٢):

فَلاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِ ي لاَ يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرَّ

قالوا: وفائدتها: تأكيد القسم، كقولك: (لا والله ما ذاك)، تريد: (والله ما ذاك)، فيجوز حذفها، لكنَّهُ أبلغ في الرَّدِّ مع إثباتها(٣).

قال الشيخ محمد عبده- رحمه الله-: " قوله-ﷻ- ﴿**لا أُقْسِمُ**﴾ عبارةٌ من عبارات العرب في القسم، يُرَادُ بها تأكيد الخبر "(٤) ا.هـ

ومِن خلال ما سبق يَتَبَيَّنُ: أنَّ القسم المسبوق بالنفي، هو عبارة من عبارات القسم، وعليه: فليست (**لا**) زائدة كما ذَكَرَ البعضُ(٥)، وليست أداةَ نفيٍ نافية للقسم كما ادَّعَى آخرون(٦)، إذ أنَّهُ مردودٌ بتعيين المقسم به، كما في قوله-ﷻ-: ﴿**فَلا**

(١) البرهان (٤٦/٢)، الإتقان (٨٨/٣).
(٢) ديوان امرئ القيس ص (١٥٤)، معجم مقاييس اللغة/ دعو (٢٨٠/٢)، الصحاح/ وجه (٢٢٥٥/٦)، لسان العرب/ وجه (٥٥٥/١٣)، مغني اللبيب (٣٢٩/١)، تاج العروس/ سند (٢١٩/٨).
(٣) ينظر الكشاف (٦٥٨/٤)، لباب التأويل (١٨١/٧)، روح المعاني (١٣٥/٢٩، ١٣٦).
(٤) تفسير جزء عم ص (٢٤).
(٥) ينظر بحر العلوم (٥٥٩/٣)، تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، التسهيل(٤٨٣/٢)، تفسير الجلالين (٨٠٨/١)، روح البيان (٤٣٢/١٠)، فتح القدير (٤٤٢/٥).
(٦) قال الشنقيطي متعقباً القول بالنَّفْي: " **الوجه الثَّاني:** أنَّ ﴿ **لا** ﴾ نفيٌ لكلامِ المشركين المكذِّبين للنَّبِي-ﷺ-، وقوله: ﴿ **أُقْسِمُ** ﴾ إثباتٌ مستأنفٌ، وهذا القولُ وإنْ قال به كثيرٌ من العلماء، فليس بوجيهٍ عندي، لقوله-ﷻ- في سورة القيامة ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾، = =لأنَّ قوله-ﷻ- ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ يدلُّ على أنَّهُ لم يُرِدْ الإثبات المؤتنف بعد النَّفْي بقوله ﴿ **أُقْسِمُ** ﴾، والله-ﷻ- أعلم.

أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة/٧٥-٧٧] فقد صرح بالقسم هنا، وليس بعد بيانِ اللهِ بيانٌ، كما أنَّ تأكيد الأمر عن طريق النفي مألوفٌ في لغة العرب، فإنَّك إذا قلت لصاحبك: (لا أُوْصِيكَ بِفُلانٍ)، فإنَّمَا تريد تأكيد التوصية به، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه بالأسلوب الصَّريح المباشر، وكذلك نفي القسم، استعمل في القسم من طريق آكد وأبلغ(١).

هذا: وقد ابتدئت سورة البلد بالقسم في قوله-ﷻ- ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ تشويقاً لِمَا يَرِدُ بَعْدَ القَسَم، وتأكيداً للمقسم عليه، والإشارة بـ (**هَذَا**) مع بيانه بالبلد، إشارة إلى حاضرٍ في أذهان السامعين، لأنَّ بعضهم كان يعيش في مَكَّةَ، وبعضهم كان يعرفها معرفة لا خفاء معها، وشبيه بذلك قوله-ﷻ-: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**﴾ [النمل/٩١]، وفائدة الإتيان باسم الإشارة: تمييزُ المُقْسَمِ به أَكْمَلَ تمييزٍ لقصد التَّنويه به(٢).

والْبَلَدُ: جانبٌ من متسعٍ من أرضٍ عامرةً كانتْ- كما هو الشَّائع- أم غامرة، وأطلق البلد هنا على جانب من الأرض مجعولة فيه بيوت من بناء(٣)، وهو بلدة

الوجه الثَّالث: أنَّهَا حرف نفيٍ أيضاً، ووجهه: أنَّ إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به، فهو نفيٌ لذلك الخبر الضِّمني على سبيل الكناية، والمراد أنَّهُ لا يُعَظَّمُ بالقسم، بل هو في نفسه عظيم، أَقْسَمَ به أَوْ لاَ، وهذا القول ذكره صاحب الكشاف [٦٥٨/٤] وصاحب روح المعاني [١٥١/١٥]، ولا يخلو عندي من بُعْدٍ " ا.هـ دفع إيهام الاضطراب ص (٢٦٥، ٢٦٦)، ويُضاف إلى البُعْدِ الذي ذَكَرَهُ الشنقيطيُّ؛ أنَّ قوله -ﷻ- في سورة [الواقعة/٧٦] ﴿**وَإِنَّـهُ لَقَسَمٌ لَـوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيمٌ**﴾ يَرُدُّ هذا الرَّأْيَ، وهذا دليلٌ على أنَّ هنا قَسَماً مُثْبَتَاً، وأنَّ الكَلامَ إثباتُ قسمٍ، لا نفي قسمٍ، وليس بعد بيانِ اللهِ بيانٌ. أسلوب القسم ص (١٣).

(١) أسلوب القسم ص (١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٤٦/٣٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٣٩٨/١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣٤٦/٣٠).

مكة في قول جميع المفسرين(١)، قال ابن عطية: " ولا خلاف بين المفسرين أنَّ **(البلد)** المذكور هو مكَّة "(٢).

وفضلُ مَكَّةَ معروفٌ، فإنَّ الله-ﷻ-جعلها حرماً آمناً، فقال في المسجد الَّذي فيها: ﴿**وَمَن دَخَلَه كَانَ ءَامِنًا**﴾، وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب، فقال-ﷻ-: ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة/١٤٤، ١٥٠]، وشَرَّفَ مقام إبراهيم بقوله-ﷻ-: ﴿**وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ [البقرة/ ١٢٥]، وأَمَرَ النَّاسَ بِحَجِّ ذلك البيت فقال -ﷻ-: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران/ ٩٧]، وقال -ﷻ- في البيت: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾ [البقرة/١٢٥] وقال-ﷻ-: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْاً**﴾ [الحج/٢٦]، وحَرَّمَ فيه الصَّيد، وجَعل البيت المعمور بإزائه، ودُحِيَت الدنيا مِن تحته، فهذه الفضائل وأكثر منها لَمَّا اجتمعت في مكَّةَ، لا جَرَمَ أَقْسَمَ اللهُ-ﷻ- بها(٣).

قوله-ﷻ- ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ**﴾(٤)، في تفسيره ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّ لفظ ﴿**حِلٌّ**﴾ بمعنى الحَلال الذي هو ضِدُّ الحرام، يُقال: هو حِلٌّ وحَلالٌ، وحِرْمٌ وحَرَامٌ(٥).

والمعنى: وأنت أيها الرَّسول الكريم قد أحل اللهُ-ﷻ- لك مَكَّةَ، تصنع فيه ما تُرِيدُ من القتل والأسر وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك، وليس عليك ما على النَّاس من الإثم في استحلالها، وبيان هذا: أنَّ مكة بلدٌ حرام، لا يعضد شجرها، ولا ينفر

(١) تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢٠)، التسهيل (٤٨٣/٢)، لباب التأويل (٢٤٨/٧)، اللباب (٣٣٩/٢٠)، السراج المنير (٦١٥/٤)، روح المعاني (٣٠/ ١٣٣)، تتمة أضواء البيان (١٢٧/٩).

(٢) المحرر الوجيز (٤٨٣/٥).

(٣) التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، اللباب (٣٤٠/٢٠)، السراج المنير (٦١٥/٤).

(٤) جملة ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ** ﴾ فيها وجهان، أحدُهما: أنَّهَا جملةٌ اعتراضيةٌ، والثاني: أنَّهَا جملةٌ حاليةٌ. ينظر الدر المصون (٥٢٤/٦)، اللباب (٣٣٩/٢٠)، فتح القدير (٤٤٣/٥) بتصرف.

(٥) قال الواحدي: " الحِلُّ والحَلالُ والمحلُ واحدٌ، وهو ضِدُّ المُحَرَّمِ " التفسير الوسيط (٤٨٨/٤)، وينظر فتح القدير (٤٤٢/٥).

صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يلتقط لقطتها، ولا يحمل فيها سلاح، ولا يقتل فيها النَّاس، فالبلد بلدٌ حرامٌ مُحَرَّمٌ، لكنها أُحِلَّت لرسول الله-ﷺ- ساعة من نهارٍ يومِ الفتح، يفعل فيها ما يشاء، ويقتل مَنْ يشاء: وبه قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين(١).

قال ابنُ كثير: " وهذا المعنى الذي قالوه قد وَرَد به الحديث المُتَّفَقُ على صحته: **(إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لاَ يُعْضَدُ شَجَرُهُ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، أَلاَ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)**(٢)،

وفي لفظ آخر **(فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ)** "(٣) ا.هـ،

وقد جاء في حديث آخَرَ أَمْرُ النَّبِيِّ-ﷺ- بِقَتْلِ ابْنِ خَطَلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة: **فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ دَخَلَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ**

---

(١) ينظر جامع البيان (٤٣٠/٢٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٣٢/١٠)، رموز الكنوز (٦٢٧/٨)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٨).

(٢) هذا اللفظ والذي بعده وردا في حديث واحدٍ **عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلاً قَامَ بِهِ النَّبِيُّ-ﷺ-، الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ فِيهَا فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)، فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ مَا قَالَ عَمْرٌو ؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، لَا يُعِيذُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ وَلَا فَارًّا بِخَرْبَةٍ)**. أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب/ العلم، باب/ لِيُبَلِّغِ العِلْمَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ (٣٢/١) ح (١٠٤)، ومسلم في صحيحه: كتاب/ الحج، باب/ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا، إِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ (٩٨٧/٢) ح (١٣٥٤)، قال ابن الأثير في النهاية/ خرب (٥٠/٢): " الخَرْبَةُ: أصلُها: العَيْبُ، والمراد بها هاهنا: الذي يَفِرُّ بشيء يريد أنْ ينْفَرِدَ به ويغْلِبَ عليه مما لا تُجيزُهُ الشَّريعةُ، والخَارِبُ أيضاً: سَارِق الإبل خاصَّة، ثم نُقِل إلى غَيرِهَا اتِّسَاعاً، وقد جاء في سِياق الحديث في كتاب البخاري: أنَّ الخَرْبَةَ: الجِنَايةُ " ا.هـ

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٠٢/٨).

الْمِغْفَرُ، فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: اقْتُلُوهُ)(١).

فَإِنْ قِيلَ: سورةُ البلدِ مَكِّيَةٌ، والواقعةُ الَّتِي ذَكَرْتُمْ إنَّمَا حَدَثَتْ في آخر مدة هجرته-ﷺ- إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين ؟ **فالجواب:** أنَّ قوله-ﷻ- **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** يعني في المستقبل؛ لأنَّ اللفظ قد يكون للحال، والمعنى مستقبلاً، كقوله-ﷻ- **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** [الزمر/٣٠] أي: ستموت وسيموتون، ومثله واسعٌ في كلام العرب تقول لمن تَعِدُهُ الإكرامَ: أنت مُكَرَّمٌ، وهو في كلام الله واسع، لأنَّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة، بسبب أنَّهُ لا يمنعه عن وعده مانعٌ(٢)، قال الزمخشري: " وكفاك دليلاً قاطعاً على أنَّهُ للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحَال مُحَالٌ: أنَّ السُّورة بالاتفاق مَكِّيَّةٌ، وأين الهجرة عن وقت نزولها ؟ فما بَالُ الفتح ؟ "(٣) ا.هـ

وعلى هذا القول: يكون قوله-ﷻ- **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** إخباراً عن المستقبل، وَوَعْدَاً بالفتح، وأنَّهَا تَحِلُّ للنَّبِيِّ-ﷺ- بعد أن كانت حراماً، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم، أو أنَّهُ تسليةٌ له-ﷺ-، وأنَّ الله-ﷻ- عالمٌ بما يفعلون به، وسينصره عليهم(٤).

فقد أقسم الله-ﷻ- بِمَكَّةَ حال كونها حِلاً للرَّسول-ﷺ-، وذلك عام الفتح؛ فيكون مُقْسَماً بالبلد الحرام على أكمل أوصافه، وأحسن أحواله، مُطَهَّرَاً من الأصنام وعابديها، مُحَلَّى بزينة أهل الإيمان، فإنَّه لَمَّا ظَهَرَ النَّبِيُّ-ﷺ- على مكة وَجَدَ حول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب/ الحَجّ، باب/ دُخُولِ الحَرَمِ وَمَكَّةَ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ (١٧/٣) ح (١٨٤٦)، ومسلم في صحيحه: كتاب/ الحَجّ، باب/ جَوَازِ دُخُولِ مَكَّةَ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ (٩٨٩/٢) ح (١٣٥٧).
(٢) ينظر الكشاف (٧٥٤/٤) ، التفسير الكبير (١٦٤/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢٠)، السِّرَاجُ المنير (٣٩٣/٤).
(٣) الكشاف (٧٥٤/٤)، وينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢٠)، السراج المنير (٣٩٣/٤).
(٤) تتمة أضواء البيان (١٢٨/٩).

الكعبة ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن فيها ويقول: (جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ، جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)(١)، وأذَّنَ بلالٌ على الكعبة رافعاً صوته بقوله: " أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله "، فنال منهم ذلك كُلَّ مَنَالٍ، وأعزَّ اللهُ دِينَ الإسلام في ذلك اليوم، وأَذَلَّ سلطان الشِّرْكِ(٢)، وصارت هذه البلد بعد أنْ كانت بَلَدَ كُفْرٍ، صارت بَلَدَ إيمانٍ، وبعد أنْ كانت بِلادَ شِرْكٍ، صارت بِلادَ توحيدٍ، وبعد أنْ كانت بِلادَ عِنَادٍ، صارت بِلادَ إِسْلامٍ، فَأَشْرَفُ حَالٍ لِمَكَّةَ كانت عند الفتح(٣).

القولُ الثَّانِي: أنَّ كلمة {حِلٌّ} بمعنى الحَالِّ المُقِيمِ، أي: وأنت يا رسول الله مقيمٌ ساكنٌ بهذا

البلد حَالٌّ ونَازِلٌ فيه(٤)، وهو إشارةٌ إلى زيادة حرمة وشرف البلد الحرام لمكان النَّبِيِّ –ﷺ– فيه، لأنَّ شرف المكان بشرف أهله وساكنه ونازله(٥).

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رضي الله عنه– قَالَ: (دَخَلَ النَّبِيُّ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِا ئَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: [جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَا طِلَ كَانَ زَهُوقًا] [جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَا طِلُ وَ مَا يُعِ يدُ]. أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب/ التفسير، باب/ {وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (٨٦/٦) ح (٤٧٢٠)، ومسلم في صحيحه: كتاب/ الجهاد والسِّير، باب/ إِزَالَةِ الأَصْنَامِ مِنْ حَوْلِ الْكَعْبَةِ (١٤٠٨/٣) ح (١٧٨١)، قال ابنُ سيده في المحكم / نصب (٣٤٣/٨): " النَّصْبُ والنُّصُب: كُلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ، والجمعُ: أَنصَابٌ، وقال الزَّجّاجُ: النُّصُبُ جَمْعٌ، واحِدُهَا: نِصَابٌ، قال: وجائزٌ أن يكونَ واحداً وجَمْعُه أَنْصابٌ، والأَنْصابُ: حِجارةٌ كانت حَوْلَ الكَعبة تُنْصَبُ فَيُهَلُّ عليها ويُذْبَحُ لغيرِ الله ".

(٢) ينظر رموز الكنوز (٦٢٨/٨).

(٣) تفسير القرآن للعثيمين (٢٧/٢).

(٤) ينظر النكت والعيون (٢٧٤/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢٠)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، غرائب القرآن (٣٤١/٧)، الجواهر الحسان (٤١٤/٤)، البحر المديد (٣٠٣/٨)، مراج لبيد (٦٣٣/٢).

(٥) ينظر تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، لباب التأويل (٢٤٨/٧)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، نظم الدرر (٤٢٦/٨)، تفسير المراغي (١٥٦/٣٠)، في ظلال القرآن (٣٩/٨)، تفسير القرآن للعثيمين (٢/٢٨)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٠/١٥)، التفسير المظهري (٢٦٤/١٠).

وعلى هذا القول: فجملة ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿**أُقْسِمُ**﴾ فيكون القسم بالبلد مقيداً باعتبار كونه بَلَدَ النَّبِيِّ-ﷺ-، قال ابنُ عاشور: " وهو تأويلٌ جميلٌ لو ساعد عليه ثبوت استعمال ﴿**حِلٌّ**﴾ بمعنى: حَالٌّ، أي مُقِيمٌ في مكانٍ، فإنَّ هذا لم يرد في كتب اللغة: (الصحاحِ) و(اللسانِ) و(القاموسِ) و(مفرداتِ الراغب)، ولم يعرج عليه صاحب (الكشاف)، ولا أحسب إعراضه عنه إلا لعدم ثقته بصحة استعماله، وقال الخفاجِي: " والحِلُّ: صفةٌ أو مصدرٌ بمعنى الحَالِّ هنا على هذا الوجه، ولا عبرةَ بِمَنْ أنكره لعدم ثبوته في كتب اللغة "(١)، وكيف يُقال: لا عبرة بعدم ثبوته في كتب اللغة، وهل المَرْجِعُ في إثبات اللغة إلاَّ كُتب أئمتها "(٢) ا.هـ

وخلافاً لِمَا سبَقَ يرى صاحب تتمة الأضواء أنَّ هذا القول هو الراجح– وإنْ كان أقلَ قائلاً– وذلك لقرائن مِنْ نفس السُّورة ومِنْ غيرها من القرآن الكريم:

منـ ها: أنَّ حلوله–ﷺ– بهذا البلد له شأن عظيم فعلاً، وَأَهَمُّهُ: أنَّ الله–ﷻ– رافعٌ عنهم العذاب لوجوده–ﷺ– فيهم، كما في قوله–ﷻ–:﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال/٣٣]، فكأنه–ﷻ– يقول: وهذا البلد الأمين مِن العذاب، وهؤلاء الآمنون مِن العذاب بفضل وجودك فيهم.

ومنـها: أنَّهُ–ﷺ– بحلوله فيها بين أظهرهم، يُلاقي من المشاق ويصبر عليها، وفيه أروع

المثل للصَّبر على المشاق في الدَّعوة، فقد آذوه كل الإيذاء، حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلي عند الكعبة، وهو يصبر عليهم، وآذوه في عودته من الطائف، وجاءه ملك الجبال نصرة له، فَأَبَى وصبر ودعا لهم، ومنعوه الدُّخول إلى بلده مسقط رأسه فَصَبَرَ، ولم يَدْعُ عليهم، ورضي الدخول في جوار رجلٍ مشركٍ، وهذا هو المناسب لقوله بعده ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾، وهذا من أعظمه، فإذا

(١) حاشية الشهاب (٣٦١/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٣٤٨/٣٠).

كان كُلُّ إنسان يكابد في حياته، أَيَّاً كان هو، ولأي غرضٍ كان، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام، حتى يُقسم بها، والله-ﷻ- أعلم(١).

الـ قولُ الثَّا لِثُ: أنَّ معنى ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ أي: تُستحل حرمتُكَ ويُؤذيك الكفرةُ، مع أنَّ مَكَّةَ لا يَحِلُ فيها قَتْلُ صيدٍ ولا بَشَرٍ، ولا قطع شجر(٢)، قال الرازي عن هذا القول: " الحِلُّ بمعنى الحَلالُ، أي أنَّ الكفار يحترمون هذا البلد، ولا ينتهكون فيه المحرمات، ثم إنَّهم مع ذلك ومع إكرام الله-ﷻ- إيَّاكَ بالنُّبُوَّةِ؛ يستحلُّون إيذاءك، ولو تَمَكَّنُوا منك لَقَتَلُوكَ، فأنت حِلٌّ لهم في اعتقادهم، لا يرون لك مِن الحرمة ما يرونه لغيرك، عن شرحبيل: " يُحَرِّمُونَ أنْ يَقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرة، ويستحلون إِخْرَاجَكَ وقَتْلَكَ "(٣)، وفيه تثبيتٌ لرسول الله-ﷺ-، وبعثٌ على احتمال ما كان يكابد مِنْ أهل مكة، وتعجيبٌ له مِنْ حالهم في عدوانهم له-ﷺ- "(٤) ا.هـ

هذا: ويمكن القول بأنَّ الأقوال الثَّلاثة السَّالفة الذِّكْرِ لا تعارض بينها، بل يؤيد بَعْضُهَا بَعْضَاً، لأنَّ الرَّسول-ﷺ- قد أقام معهم في مكة خمسين سنة، وكان يلقب عندهم بالصَّادِقِ الأمين، ومع ذلك آذوه، بينما حَرَّمُوا إيذاء غيره، ثم إنَّ الله- تعالى- قد مَكَّنَ رسولَه-ﷺ-
منهم، كما حدث في غزوة الفتح سنة ثمان من الهجرة، والله-ﷻ- أعلم(٥).

---

(١) تتمة أضواء البيان (١٢٨/٩، ١٢٩).
(٢) ينظر النكت والعيون (٢٧٤/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٥/٦)، زاد المسير (١٢٧/٩)، التسهيل (٢/ ٤٨٣)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، غرائب القرآن (٣٤١/٧)، نظم الدرر (٤٢٦/٨)، البحر المديد (٣٠٣/٨)، رموز الكنوز (٦٢٧/٨)، فتح القدير (٤٤٢/٥)، روح المعاني (١٣٣/٣٠).
(٣) ينظر قول شرحبيل بن سعد في الكشف والبيان (٢٠٧/١٠)، معالم التنزيل (٤٢٩/٨)، المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، رموز الكنوز (٦٢٩/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، اللباب (٣٤١/٢٠)، غرائب القرآن (٣٤١/٧)، إرشاد العقل السليم (١٦٠/٩)، روح المعاني (١٣٣/٣٠).
(٤) التفسير الكبير (٣١ /١٦٧).
(٥) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٠/١٥) بتصرف.

فَإِنْ قِيلَ: هَلاَّ اكتفى بالكناية عن البلد فقال: (وأنت حِلٌّ به) ؟ **فالجواب:** أنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ البلد لِمَا يأتي:

أولاً: تفخيم شأن البلد وتعظيم أَمْرِهِ(١).

ثانياً: قَصْدُ تجديد التَّعجيب، وقَصْدُ تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه، والشَّديد على المشركين أنْ يَخْرُجَ عن حَوْزَتِهِمْ(٢).

وقوله–ﷻ–: ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ معطوفٌ على المقسم به الأَوَّلِ– وهو قوله–ﷻ–:﴿**بِهذَا الْبَلَدِ**}–، وداخل في حيز القسم، أي: أُقْسِمُ بهذا البلد وأُقْسِمُ بوالدٍ ومَا وَلَدَ(٣).

وفي المراد بِالوَالِدِ والوَلَدِ في هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة، وفيما يلي ذِكْرُ أربعة منها، وهي أَهَمُّهَا وأَوْلاهَا:

القولُ الأَوَّلُ: أنَّ الوَالِدَ: آدم–عليه السلام–، وَمَا وَلَدَ: ذريته(٤)، وبه قال مجاهد وقتادة وأبو صالح والضَّحاك وابن جبير وسفيان الثَّوري والحسن وغيرهم(٥)، والمعنى: أُقسم بهذا البلد الذي لَهُ مَا لَهُ من الشَّرف، والمكانة السَّامية بين البلاد، وأُقسم بأبيكم آدم، وبذريته من بعده(٦).

---

(١) ينظر رموز الكنوز (٦٢٩/٨)، نظم الدرر (٤٢٦/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٣٤٩/٣٠).
(٣) ينظر التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، اللباب (٣٤١/٢٠)، إرشاد العقل السليم (١٦٠/٩)، روح المعاني (١٣٤/٣٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠١/١٥).
(٤) ينظر معاني القرآن للفراء (٢٦٣/٣)، بحر العلوم (٥٥٩/٣)، الوجيز للواحدي ص (١٢٠٣)، معالم التنزيل (٤٣٠/٨)، الكشاف (٧٥٤/٤)، تفسير العِزّ (٤٥٣/٣)، التسهيل (٤٨٣/٢)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، لباب التأويل (٢٤٨/٧)، إيجاز البيان عن معاني القرآن (٨٧٧/٢)، تفسير الجلالين (٨٠٨/١)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، محاسن التأويل (٤٧٦/٩).
(٥) ينظر جامع البيان (٤٣٢/٢٤)، الكشف والبيان(٢٠٧/١٠)، النكت والعيون (٢٧٥/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٦/٦)، زاد المسير (١٢٧/٩)، رموز الكنوز (٦٣٠/٨)، الجامع لأحكام القرآن(٦١/٢٠)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٣/٨)، فتح القدير (٤٤٣/٥).
(٦) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠١/١٥).

وَأَقْسَمَ بهم إذ هم مِن أَعْجَبِ خَلْقِ اللهِ على وجه الأرض، لِمَا فيهم من البيان والنُّطق والتَّدبير واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله–ﷻ– والأنصار لدينه، وكُلُّ ما في الأرض مخلوقٌ لهم، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وعلَّمه الأسماء كُلَّهَا، وقد قال الله–ﷻ–: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ**﴾ [الإسراء/٧٠](١).

وقد استحسن ابنُ كثير هذا القول قائلاً: " وهذا الَّذي ذهب إليه مجاهدٌ وأصحابُهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ؛ لأنَّهُ–ﷻ– لَمَّا أَقْسَمَ بأُمِّ القُرى– وهي المَسَاكِنُ–، أقسم بعده بالسَّاكِنِ– وهو آدم أبو البشر وولده– "(٢) ا.هـ، وأيضاً لأنَّ مَكَّةَ أمُ القرى، وآدم أبو البشر، فكأنَّهُ أَقْسَمَ بِأُصول الموجودات وفروعها(٣).

القولُ الثَّانِي: أنَّ الوَالِدَ: الذي يُولَدُ له، وَمَا وَلَدَ: العاقر الذي لا يُولَدُ له(٤)، فـ (مَا) عليه نافية، فتحتاج إلى تقدير موصولٍ يصح به المعنى، كأنَّهُ قيل: ووالد والذي مَا وَلَدَ، وإضمار الموصول لا يجوز عند البصريين(٥)، قال الألوسي: "ومع هذا هو خلاف الظاهر "(٦) ا.هـ **القولُ الثَّالِثُ:** أنَّ الوَالِدَ: إبراهيم–عليه السلام–، ومَا وَلَدَ: ذريته(٧)، ولعل ظاهر عطف قوله﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ على قوله ﴿**بِهذَا الْبَلَدِ**﴾ إرادة مَنْ له دخلٌ فيه وشهرةٌ بنسبة البلد إليه، والمشهور في ذلك: إبراهيم

---

(١) ينظر التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠) اللباب (٣٤١/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، فتح القدير (٤٤٣/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٠٣/٨).

(٣) ينظر تتمة أضواء البيان (١٢٩/٩).

(٤) ينظر تفسير العِزّ (٤٥٣/٣)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠١/١٥)، ونُسِبَ هذا القول إلى ابن عباس في جامع البيان (٤٣١/٢٤)، النكت والعيون (٢٧٥/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٦/٦)، وإلى عكرمة في بحر العلوم (٥٥٩/٣)، وإلى ابن جبير وعكرمة في فتح القدير (٤٤٣/٥)، وإلى ابن عباس وابن جبير وعكرمة في المحرر الوجيز (٤٨٣/٥) الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠، ٦٢)، البحر المحيط (٤٧٠/٨) الدر المصون (٥٢٤/٦، ٥٢٥)، وإلى ابن عباس وعلي وعكرمة وابن جبير في الكشف (٢٠٧/١٠).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٢٠٧/١٠)، التفسير الكبير (١٦٧/٣١) الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠)، البحر المحيط (٤٧٠/٨).

(٦) روح المعاني (١٣٥/٣٠).

(٧) ينظر تفسير العِزّ (٤٥٣/٣)، التسهيل (٤٨٣/٢)، اللباب (٣٤١/٢٠)، محاسن التأويل (٤٧٦/٩)، وبه قال أبو عمران الجوني: ينظر جامع البيان (٤٣٣/٢٤)، الكشف والبيان (٢٠٧/١٠)، النكت والعيون (٢٧٥/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٦/٦)، زاد المسير (١٢٨/٩)، المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، البحر المحيط (٤٧٠/٨) فتح القدير (٤٤٣/٥).

وإسماعيل– عليهما السلام–: أفاده الألوسي(١)، ومِن ثَمَّ قال ابن عاشور: " الذي يناسب القسم بهذا البلد أَنْ يكون المراد بـ ﴿**وَالِدٍ**﴾ إبراهيمَ– عليه السلام–، فإنَّه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجر، قال–ﷻ–: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم/٣٥] ثم قال–ﷻ–: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم/٣٧]، وإبراهيمُ وَالِدُ سُكان ذلك البلد الأصليين، قال–ﷻ–: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الحج/٧٨]، ولأنَّهُ وَالِدُ النَّبِيّ محمد–ﷺ–، و ﴿**مَا وَلَدَ**﴾ موصول وصلة، والضَّمير المستتر في﴿**وَلَدَ**﴾ عائد إلى ﴿**وَالِدٍ**﴾، والمقصود: وما ولده إبراهيم من الأبناء والذُّرِّيَّةِ، وذلك مخصوص بالَّذين اقتفوا هديه فيشمل محمداً–ﷺ–، وفي هذا تعريضٌ بالتَّنبيه للمشركين من ذُرِّيَّةِ إبراهيم بأنَّهم حادُوا عن طريقة أبيهم مِن التَّوحيد والصَّلاح والدَّعوة إلى الحقّ وعِمارَةِ المسجد الحرام، قال–ﷻ–: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران/٦٨] "(٢) ا.هـ

القول الرَّابِعُ: أنَّهُ عام في كُلِّ وَالِدٍ ومولودٍ مِن العقلاء وغيرهم(٣)، وقد استصوب هذا القولَ أبو جعفر الطَّبَرِيُّ قائلاً: " والصَّواب مِن القول في ذلك: ما قاله الَّذي قالوا: إنَّ الله–ﷻ– أقسم بكلِّ والدٍ وولدِهِ، لأنَّ الله–ﷻ– عَمَّ كُلَّ والدٍ ومَا وَلَدَ، وغيرُ جائزٍ أَنْ يخصَّ ذلك إلاَّ بحجة يجب التسليم لها من خبرٍ أو عقلٍ، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عَمَّهُ "(٤) ا.هـ، واستظهره أبو حيان قائلاً: " والظَّاهِرُ أنَّ قوله–ﷻ– ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾ لا

(١) روح المعاني (١٣٥/٣٠).
(٢) التحرير والتنوير (٣٤٩/٣٠).
(٣) ينظر بحر العلوم (٥٥٩/٣)، الكشاف (٧٥٤/٤)، زاد المسير (١٢٨/٩)، رموز الكنوز (٦٣٠/٨)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، التسهيل (٤٨٣/٢)، إرشاد العقل السليم (١٦٠/٩)، السِّراج المنير (٦١٦/٤)، تتمة أضواء البيان (١٢٩/٩)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، وقد نُسِبَ هذا القول إلى ابن عباس أيضاً في المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، الجواهر الحسان (٤١٥/٤)، روح المعاني (١٣٥/٣٠)، وإلى عطية العوفي في الكشف والبيان (٢٠٧/١٠)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، وإلى ابن عباس وعطية في الجامع لأحكام القرآن (٦١/٢٠، ٦٢).
(٤) جامع البيان (٤٣٣/٢٤).

يُرادُ بـه معين، بل يُطْلَقُ على كُلِّ وَالِدٍ "(١) ا.هـ، وقال الألوسي: " ولعلَّ ظاهرَ اللفظِ عدمُ التَّعْيِينِ في المعطوفين "(٢) ا.هـ

وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما فائدة التَّنكير في قوله ﴿**وَوَالِدٍ**﴾ ؟

والجواب: أنَّ التَّنكير للتَّعظيم والتَّفخيم(٣).

السؤال الثاني: لِم أُوثِرَتْ (مَا) على (مَنْ) في قوله-ﷻ- ﴿**وَوالِدٍ وَما وَلَدَ**﴾؟

والجواب: أنَّ إيثار {مَا} على (مَنْ)- بناء على أنَّ المراد بـ ﴿**مَا وَلَدَ**﴾: العاقل- لإرادة الوصف، فتفيد التَّعظيم في مقام المدح، وأنَّه مما لا يكتنه كنهه، لِشِدَّةِ إبهام (مَا)، ولذا أفادت التَّعجب أو التَّعجيب، كما في قوله-ﷻ- ﴿**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ [آل عمران/ ٣٦] أي: واللهُ أَعْلَمُ بِأَيِّ مولودٍ عظيمِ الشَّأنِ وَضَعَتْهُ(٤)، قال ابنُ عاشور: " عُدِلَ عن (مَنْ)، لأنَّ (مَا) أشدُّ إبهاماً، فأُريد تفخيم أصحاب هذه الصِّلة، فجيء لهم بالموصول الشَّديد الإبهام لإرادة التَّفخيم"(٥) ا.هـ

ثُمَّ ذَكَرَ -ﷻ- المُقْسَمَ عليه فقال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ**﴾ واللام هنا واقعة في جواب القسم، و (**قَدْ**) حرف تحقيق، فهذه الآية مُؤَكَّدَةٌ بثلاثة مؤكِّدات، وهي: القسم، واللام، وقَدْ.

والخَلْقُ: إيجاد ما لم يكن موجوداً، ويُطلق على إيجاد حالة لها أَثَرٌ قويٌّ في الذَّات، كقوله -ﷻ-: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ**﴾ [الزمر/٦] وقوله-ﷻ-: ﴿**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي**﴾ [المائدة/١١٠]، فهو جَعْلٌ يُغَيِّرُ ذاتَ الشَّيءِ(٦).

---

(١) البحر المحيط (٨/٤٧٠).
(٢) روح المعاني (٣٠/١٣٥).
(٣) ينظر أنوار التنزيل (٥/٣١٣)، غرائب القرآن (٧/٣٤١)، روح البيان (١٠/٤٣٣) روح المعاني (٣٠/ ١٣٥)، التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٩).
(٤) حاشية الشهاب (٨/٣٦١)، روح المعاني (٣٠/١٣٥)، وينظر الكشاف (٤/٧٥٤)، التفسير الكبير (٣١/١٦٧)، أنوار التنزيل (٥/٣١٣)، روح البيان (١٠/٤٣٣).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٩).
(٦) المرجع السَّابق (٣٠/٣٥٠).

والإنسان: اسمُ جنسٍ يشمل كُلَّ واحدٍ من بني آدم(١)، وهو قولُ جمهور المفسرين(٢)، فالتَّعريف في ﴿**الإِنْسانَ**﴾ تعريف الجنس، وقيل: التعريف فيه للعهد، فعن الكَلْبِيِّ: أنَّهُ أبو الأَشَدِّ، ويقال: أبو الأَشَدّيْنِ، واسمه أُسَيْد بن كَلْدَةَ الجُمَحِي، كان معروفاً بالقوَّةِ والشِّدَّةِ يجعل الأَدِيم العُكَاظِي(٣) تحت قدميه فيقول: مَنْ أزالني فله كذا، فيجذبه عشرةُ رجالٍ حتى يُمَزَّقَ الأديمُ ولا تزول قدماه، وكان شديد الكفر والعداوة للنَّبِيِّ-ﷺ- فنزل فيه: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ [البلد/٥]، وقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: هو أبو جهل، وعن مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، وذلك أنَّهُ أذنب ذَنْباً، فأمره النَّبِيُّ-ﷺ- بالكفَّارة، فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات والنَّفقات منذ دخلتُ في دِيْنِ محمدٍ، وقيل: هو عمرو بن عبد وُدّ الذي اقتحم الخندق في يوم الأحزاب ليدخل المدينة، فقتله علي بن أبي طالب خَلْفَ الخندق، وقيل غير ذلك(٤).

وليس لهذه الأقوال شاهدٌ من النَّقْلِ الصَّحيح ولا يلائمها القَسَمُ ولا السِّياقُ(٥)، وعليه: فالصَّحيح: هو القولُ الأَوَّلُ، وأنَّ الإنسانَ اسمُ جِنْسٍ يشمل كُلَّ واحدٍ من بني آدم(٦).

والكَ بَدُ في قوله-ﷻ- ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ**﴾: هو الشِّدَّةُ والتَّعَبُ والمَشَقَّةُ(٧)، مِن المُكَابدة للشَّيء، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب في فعله(١)،

---

(١) ينظر زاد المسير (١٢٨/٩)، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠)، اللباب (٣٤٣/٢٠)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، بيان المعاني (٢٧٠/١).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، رموز الكنوز (٦٣٠/٨)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، الجواهر الحسان (٤١٥/٤)، التحرير والتنوير (٣٥٠/٣٠).

(٣) الأَدِيمُ: الجلد المدبوغ، وعُكَاظِي: منسوب إلى عكاظ، وهو سُوقٌ معروفٌ للعرب يُصنع فيه أقوى الجلود وأحسنها. حاشية الشهاب (٣٦١/٨)، وينظر المصباح المنير/ أدم (٩/١)، معجم البلدان (١٤٢/٤).

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، زاد المسير (١٢٨/٩، ١٢٩)، رموز الكنوز (٦٣٠/٨)، الجواهر الحسان (٤١٥/٤)، روح المعاني (١٣٦/٣٠)، التحرير والتنوير (٣٥٠/٣٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣٥٠/٣٠).

(٦) ينظر رموز الكنوز (٦٣١/٨).

(٧) ينظر الكشف (٢٠٧/١٠)، الوجيز للواحدي ص (١٢٠٣)، المحرر الوجيز (٤٨٣/٥)، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، لسان العرب/ كبد (٣٧٤/٣)، البحر

وأصله من كَبِدَ الرجلُ– بزنة طَرِبَ– فهو أَكْبَدُ: إذا أُصِيبت كَبِدُهُ بالمرض، ثم اتُّسِعَ فيه فاستعمل في كُلِّ تعبٍ ومشقةٍ تنال الإنسان(٢)، والمعنى: لقد خلقنا الإنسان في تعب وشِدَّةٍ ومشقة، فإنَّهُ لا يزال يقاسي فنون الشَّدائد، ومبدأها: ظُلْمَةُ الرَّحِمِ ومضيقه، ومنتهاها: الموت وما بعده(٣)، فابن آدم يكابد من البلايا ما لا يكابده غيره، يعني أنَّ الكَبَدَ يتناول شدائد الدنيا من قطع سُرَّتِهِ، ونبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثُمَّ يكابد الخِتان، والأوجاع والأحزان، ثُمَّ يكابد المُعَلِّمَ وَصَوْلَتَهُ، والأستاذَ وَهَيْبَتَهُ، ثُمَّ يكابد شغل التَّزوج والتعجيل فيه، ثُمَّ يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد، ثُمَّ يكابد شغل الدُّور وبناء القصور، ثُمَّ الكِبَر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، كالصُّداع ووجع الأضراس ورمد العين وهَمِّ الدَّيْنِ ونحو ذلك، ويتناول أيضاً شدائد التكاليف كالشُّكر على السرَّاء، والصَّبر على الضَّرَّاء، والمكابدة في أداء العبادات كالصَّوم والصَّلاة والزَّكاة والحجّ والجهاد، ثُمَّ بعد ذلك يقاسي شِدَّةَ الموت، وسؤال الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثُمَّ البعث والعرض على الله–ﷻ–، إلى أَنْ يستقر به القرار، إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النَّار(٤)، فَعَلَى الإنسان أنْ يسعى في عملٍ يُريحه من هذه الشَّدائد، ويوجب له الفرح والسُّرور الدائم، وإن لم يفعل، فإنَّهُ لا يزال يكابد العذاب الشَّديد أَبَدَ الآبَادِ(٥).

قال أبو حيان: " قوله–ﷻ– **{فِي كَبَدٍ}** أي: يُكابد مشاق الدُّنيا والآخرة، وَمَشَاقُهُ لا تكاد تنحصر مِنْ أَوَّلِ قطع سُرَّتِهِ، إلى أَنْ يستقر قراره، إمَّا في جَنَّةٍ فتزول عنه المَشَقَّاتِ؛ وإمَّا في نَارٍ فتتضاعف مشقاته وشدائده..... وهو الظَّاهِرُ"(٦) ا.هـ

المحيط (٤٦٨/٨)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، روح المعاني (١٣٦/٣٠)، وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة وابن جبير وغيرهم. ينظر جامع البيان (٤٣٣/٢٤)، معالم التنزيل (٤٣٠/٨) زاد المسير (١٢٩/٩)، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠).

(١) ينظر المصباح المنير/ كبد (٥٢٣/٢).

(٢) ينظر الكشاف (٧٥٤/٤)، رموز الكنوز (٦٣١/٨)، البحر المحيط (٤٦٨/٨)، غرائب القرآن (٣٤١/٧)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، روح البيان (٤٣٣/١٠)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، روح المعاني (١٣٦/٣٠).

(٣) ينظر أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، روح البيان (٤٣٣/١٠).

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠، ٦٣)، اللباب (٣٤٣/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، روح البيان (٤٣٣/١٠، ٤٣٤).

(٥) ينظر تفسير السعدي ص (٩٢٤).

(٦) البحر المحيط (٤٦٨/٨).

وقيل: الكَبَدُ: الاستواء والاستقامة, فعلى هذا يكون المعنى: خلقنا الإنسان منتصباً مُعْتَدِلَ القَامَةِ, وكُلُّ شيء من الحيوان يَمشي مُنْكَبَّاً(١), وقيل المعنى: جعلناه منتصباً رأسه في بطن أُمِّهِ، فإذا أَذِنَ اللهُ له في الخروج انقلب رأسه إلى قدمي أمه(٢)، وقيل غير ذلك.

وهذه الأقوال ضعيفة لا يُعول عليها، والقول الأَوَّلُ هو الصحيح(٣)، قال الطَّبريُّ: " وأَوْلَى الأقوال في ذلك بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قال: معنى ذلك: أَنَّهُ خُلِقَ يُكابد الأمور ويُعالجها، فقوله–ﷻ– ﴿**فِي كَبَدٍ**﴾ معناه: في شِدّةٍ، وإنَّما قلنا ذلك أَوْلَى بالصَّوَابِ؛ لأنَّ ذلك هو المعروف في كلام العرب مِن معاني الكَبَدِ، ومنه قول لبيد بن ربيعة [يرثي أخاه أَرْبَدَ]:

يا عَينُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إذْ ... قُمْنا وَقَامَ الخُصُومِ فِي كَبَدِ(٤)"(٥) ا.هـ

والظَّرفية في قوله–ﷻ– ﴿**فِي كَبَدٍ**﴾ تَدُلُّ على أنَّ الكَبَدَ قد أحاط بالإنسان إحاطة الظَّرْفِ بالمظروف، وفيه إشارةٌ إلى أَنَّهُ ليس في الدُّنيا إلا الكَدُّ والمِحْنَةُ(٦).

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء (٢٦٤/٣) جامع البيان (٢٤ /٤٣٤)، بحر العلوم (٥٥٩/٣)، الوجيز للواحدي ص (١٢٠٣)، التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، التسهيل (٤٨٣/٢)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧)، وبه قال ابن عباس أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك ومجاهد وعطية وإبراهيم النَّخعي وعبد الله بن شَدَّاد: ينظر جامع البيان (٤٣٥/٢٤)، الكشف (٢٠٧/١٠)، المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، زاد المسير (١٢٩/٩)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٣/٨)، روح المعاني (١٣٦/٣٠).

(٢) قاله ابن كيسان: ينظر الكشف (٢٠٧/١٠)، معالم التنزيل (٤٣٠/٨)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، اللباب (٣٤٣/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، روح المعاني (١٣٦/٣٠).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، التسهيل (٤٨٤/٢)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، روح المعاني (١٣٦/٣٠).

(٤) ينظر ديوان لبيد ص (٣٤)، الخصائص (٣١٨/٣)، تهذيب اللغة/ كبد (٧٥/١٠)، الكشف (٢٠٧/١٠)، النكت والعيون (٢٧٦/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٧/٦) ، الكشاف (٧٥٤/٤)، المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، رموز الكنوز (٦٣٠/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٢٠)، لسان العرب (٣٧٤/٣)، البحر المحيط (٤٦٨/٨)، الدر المصون (٥٢٥/٦)، اللباب (٣٤٢/٢٠)، وبدون نسبة في المحكم/ عدل (١٣/٢)، والمعنى: يا عين هلا بكيتِ أخي وقت قيامنا للحرب وقيام الخصوم معنا فيه.

(٥) جامع البيان (٤٣٥/٢٤).

(٦) ينظر التفسير الكبير (١٦٧/٣١)، روح البيان (٤٣٣/١٠)، التحرير والتنوير (٣٥١/٣٠) التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠١/١٥).

وفي هذه الآية الكريمة تسليةٌ للنَّبِيِّ-ﷺ- مما كان يكابده مِن قريش، مِن جهة أنَّ الإنسان لم يُخلق للرَّاحة في الدنيا، وكُلُّ مَنْ كان أعظم إيماناً فهو أشدُّ تَعَبَاً(١).

المعنى العام للآيات الكريمة:

أَقْسَمَ اللهُ بهذا البلد الحرام، وهو "مَكَّة"، وَأَنْتَ- أيُّهَا النَّبِيُّ الكريم- مقيمٌ فيه، وَأَقْسَمَ بوالدِ البشريَّةِ آدم-عليه السلام- وما تناسل منه مِن وَلَدٍ، لقد خلقنا الإنسان في مكابدةٍ وَمَشَقَّةٍ، وَكَدٍّ وَكَدْحٍ.

دروس وعبر:

أولاً: أَنَّ لله-ﷻ- أَنْ يُقسم بما شاء مِن خلقه، وليس للعبد أَنْ يقسم بغير خالقه-ﷻ-: فالله-ﷻ- يقسم بما شاء على ما شاء، فيُقْسِمُ-ﷻ- بِمَا يُقْسِمُ بِهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لأَنَّهَا آيَاتُهُ وَمَخْلُوقَاتُهُ، فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَظْمَتِهِ وَعِزَّتِهِ، وَأَمَّا المخلوقون فليس لهم أَنْ يُقسموا إلاَّ بالله-ﷻ-، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ- رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-ﷺ- أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ فَقَالَ: **(أَلاَ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ)**(٢).

إنَّ الله-ﷻ- يُقسم بأمورٍ على أمورٍ، ويُقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليلٌ على أنَّهَا مِن عظيم آياته.

والمُقْسَمُ عليه يُرَادُ بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بُدَّ أنْ يكون بما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأمَّا الأمور الظَّاهرة المشهورة- كالشَّمس والقمر والليل والنَّهار والسَّماء والأرض- فهذه يُقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم الله-ﷻ- عليه فهو مِن آياته، فيجوز أنْ يكون مقسماً به ولا ينعكس.

---

(١) ينظر أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، حاشية الشهاب (٣٦١/٨)، محاسن التأويل (٤٧٦/٩).

(٢) ينظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٨١/١) بتصرف، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه [واللفظ له]: كتاب الأيمان والنُّذور، باب/ لا تحلفوا بآبائكم (١٣٢/٨) ح (٦٦٤٦)، ومسلم في صحيحه: كتاب/ الأيمان، باب/ النَّهْيِ عَنِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ- تَعَالَى- (١٢٦٧/٣) ح (١٦٤٦).

إذا عُرِفَ هذا، فاللهُ-ﷻ- يُقسم على أصول الإيمان الَّتي يجب على الخلق معرفتها:

فتارة يُقسم على التَّوحيد: كقوله-ﷻ- ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا. إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ**﴾ [الصافات/١-٤]، وتارة يُقسم على أنَّ القرآن حقٌّ: كقوله-ﷻ- ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**﴾ [الواقعة/٧٥-٧٨]، وتارة على أنَّ الرَّسُولَ حقٌّ: كقوله-ﷻ- ﴿**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [يس/٢-٤]، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد: كقوله-ﷻ- ﴿**وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا. وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا. فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا. فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا. عُذْرًا أَوْ نُذْرًا. إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**﴾ [المرسلات/١-٧]، وتارة على حال الإنسان: كقوله-ﷻ- ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**﴾ [الليل/١-٤]، وقوله-ﷻ- ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد/١-٤](١).

ثانياً: أنَّ اللهَ-ﷻ- أَقْسَمَ بالبلد الحرام، وهو مكَّة، تنبيهاً على كرامة أُمِّ القُرَى وَشَرَفِهَا عند اللهِ-ﷻ-، لأنَّ فيها بيته الحرام قِبْلَة المسلمين، وأول بيتٍ وضع للنَّاس في الأرض، ليكون مثابة لهم وأمناً، يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم، ويلتقون فيه مسالمين، حراماً بعضهم على بعض، كما أنَّ البيت وشجره وطيره وكلَّ حيٍّ فيه حرامٌ، ثُمَّ هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين، ويُكَرِّمُ اللهُ نبيه محمداً-ﷺ-، فَيَذْكُرُهُ وَيَذْكُرُ حِلَّهُ بهذا البلد وإقامته، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حُرْمَةً، وتزيده شرفاً، وتزيده عظمة، وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا المقام، والمشركون يَسْتَحِلُّونَ حرمة البيت، فيؤذون النَّبِيَّ والمسلمين فيه، والبيتُ كريمٌ، يزيده كَرَماً أنَّ النَّبِيَّ-ﷺ- حَلَّ فيه وأقام، وحين يُقسم اللهُ-ﷻ- بالبلد والمقيم به، فإنَّهُ يخلع عليه عظمةً وحرمةً فوق حرمته، فيبدو موقف المشركين- الَّذين يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ سَدَنَةُ البيت وأبناء إسماعيل وعلى مِلَّةِ إبراهيم- موقفاً منكراً قبيحاً من جميع الوجوه(٢)، قال الشيخ المراغي: " قوله-ﷻ- ﴿**لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ**﴾..... إنَّ مثل هذا التعبير قسمٌ مُؤَكَّدٌ فى كلام العرب، وقد أقسم رَبُّنَا

(١) ينظر التبيان في أقسام القرآن (٦/١، ٧، ٢٠) بتصرف.
(٢) ينظر في ظلال القرآن (٣٩/٨).

بِمَكَّةَ الَّتِي شَرَّفَهَا، فجعلها حرما آمناً، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للنَّاس يرجعون إليه، ويعاودون زيارته كُلَّمَا دعاهم إليه الشَّوْقُ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب،وَأَمَرَ بالتَّوَجُّهِ إليها فى الصَّلوات الَّتي تُكرر كُلَّ يوم فقال: فقال: ﴿**وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة/١٤٤، ١٥٠] "(١) ا.هـ

ثالثاً: أنَّ الإنسان خُلِقَ في مكابدة ومشقة، وجهدٍ وكَدٍّ، وكفاحٍ وكدحٍ، كما قال- ﷻ- في سورة [الانشقاق/٦]: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾.

فالخَلِيَّةُ الأُولى لا تستقر في الرَّحِمِ حتى تبدأ في الكَبَدِ والكَدْحِ والنَّصَبِ؛ لتوفر لنفسها الظُّروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها، وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج، فتذوق من المخاض إلى جانب ما تذوقه الوالدة ما تذوق، وما يكاد الجنين يرى النُّور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم !

وكُلُّ خطوة بعد ذلك كَبَدٌ، وكُلُّ حركة بعد ذلك كَبَدٌ، والَّذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو، وعندما يهم بالمشي، يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة، وعند بروز الأسنان كَبَدٌ، وعند انتصاب القامة كَبَدٌ، وعند الخطو الثابت كَبَدٌ، وعند التعلم كَبَدٌ، وعند التَفَكُّرِ كَبَدٌ، وفي كُلِّ تجربة جديدة كَبَدٌ، كتجربة الحبو والمشي سواء !

ثُمَّ تفترق الطُّرُقُ، وتتنوع المَشَاقُّ؛ هذا يكدح بعضلاته، وهذا يكدح بفكره، وهذا يكدح بروحه، وهذا يكدح للقمة العيش، وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله، وهذا يكدح لشهوةٍ ونزوةٍ، وهذا يكدح لعقيدةٍ ودعوةٍ، وهذا يكدح إلى النَّارِ، وهذا يكدح إلى الجَنَّة، والكُلُّ يَحْمِلُ حِمْلَهُ، ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه ! فأخسر الخاسرين هو مَنْ يعاني كَبَدَ الحياةِ الدُّنْيَا لينتهي إلى الكَبَدِ الأشقّ الأَمَرّ في الأُخْرَى، وَأَفْلَحُ الفالحين مَنْ يكدح في الطريق إلى رَبِّهِ ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كَبَدَ الحياة، وتنتهي به إلى الرَّاحَةِ الكُبرى في ظلال اللهِ-ﷻ-(٢): ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [يونس/٢٦-٢٧]،: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ**

(١) تفسير المراغي (١٥٥/٣٠).
(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤٠/٨) بتصرف.

صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التغابن/٩-١٠]،: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}** [الانفطار/١٣-١٤].

اغْتِرارُ الإِنْسانِ بِقُوَّتِهِ ومَالِهِ

قال-ﷻ-: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ** (٥) **يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا** (٦) **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**(٧)**} [البلد/٥-٧].**

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ-ﷻ- أَنَّ الإنسان خُلِقَ في كَبَدٍ وتعبٍ وعناءٍ، بَيَّنَ أنَّه يَنْسَى حقيقةَ حَالِهِ، وينخدع بما يعطيه خالقه-ﷻ- من أطراف القُوَّةِ والقدرة والوجدان والمتاع، ولذا وَبَّخَ اللهُ -ﷻ- الإنسانَ المُغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ، والجاحدَ بقدرة ربه-ﷻ-، والمُكَذِّبَ للبعثِ والنُّشورِ، فقال-ﷻ-: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}.**

والاستفهام في هذه الآية للإنكار والتَّوبيخ(١)، والمعنى: أيحسب الإنسانُ(٢) المغرورُ بِقُوَّتِهِ المُتباهى بشدَّتِهِ- رغم ما هو فيه من تَعَبٍ ونَصَبٍ- أَنْ لَنْ يقدر عليه أحدٌ ؟ !

ويدخل في هذا التَّوبيخ دُخُولاً أَوَّلِيَّاً، أُولئك المشركون مِن أهل مكَّةَ، الَّذين اغترُّوا بقوَّتِهِمْ، فآذوا النَّبِيَّ-ﷺ- وأصحابَهُ إيذاء شديداً(٣).

وفي تفسير قوله-ﷻ- ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}** قولان:

القول الأَوَّلُ: أنَّ معناه: أَيَظُنُّ الإنسانُ أَنْ لَنْ يقدر اللهُ-ﷻ- على مجازاته وقهره وغلبته وعقوبته والانتقام منه(١) ؟

---

(١) ينظر التفسير الكبير(١٦٨/٣١)، التحرير والتنوير(٣٥٢/٣٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٢/١٥).

(٢) قال أبو حيان: " والظَّاهِرُ أنَّ الضَّميرَ في ﴿ **أَيَحْسَبُ** ﴾ عائدٌ على ﴿ **الإِنسَانَ** ﴾ أي هو لِشَدَّةِ شكيمته وعزَّتِهِ وقُوَّتِهِ، يحسب ألا يقاومه أحدٌ ولا يقدر عليه أحدٌ لاستعصامه بعَدَدِهِ وعُدَدِهِ " ا.هـ البحر المحيط (٤٧٠/٨).

(٣) التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٢/١٥).

القول الثَّانِي: أنَّ المعنى: أَيَظُنُّ الإنسانُ أَنْ لَنْ يقدر اللهُ-ﷻ- على بعثه وجزائه(٢) ؟

ولا تعارض بين القولين، فإنَّ الإنسان الكافر يَظُنُّ أنَّهُ يُعجز اللهَ-ﷻ- ويفوته، ويَظُنُّ أنْ لَنْ يقهره ويغلبه، ويَظُنُّ أنْ لَنْ يعيده مرة ثانية حَيَّاً بعد موته.

قال صاحب الظِّلال: " إنَّ هذا الإنسان المخلوق في كَبَدٍ، الَّذي لا يخلص من عناء الكدح والكَدِّ، لَيَنْسَى حقيقة حَالِهِ، وينخدع بما يعطيه خَالِقُهُ مِن أطراف القُوَّةِ والقدرة والوجدان والمتاع، فيتصرف تصرف الَّذي لا يحسب أنَّهُ مأخوذ بعمله، ولا يتوقع أنْ يقدر عليه قادرٌ فيحاسبه، فيطغى ويبطش، ويسلب وينهب، ويجمع ويكثر، ويفسق ويفجر، دون أنْ يخشى ودون أنْ يتحرج، وهذه هي صفة الإنسان الذي يَعْرَى قلبُهُ من الإيمان "(٣) ا.هـ

ثُمَّ حَكَى اللهُ-ﷻ- جانباً من أقوال هذا الكافر الجاحد المغرور فقال: ﴿**يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً**﴾.

المَالُ اللُّبَدُ: هو المال الكثير الذي تَلَبَّدَ والتصق بعضُهُ ببعض لكثرته(٤)، وهو جمع لُبْدَة – بضم اللام وسكون الباء– كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ–: وهي ما تَلَبَّدَ مِن صُوفٍ أو شَعْرٍ، أي: تَجَمَّعَ والتصق بعضُهُ ببعضٍ(٥).

---

(١) ينظر جامع البيان (٤٣٥/٢٤)، بحر العلوم (٥٦٠/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٦٣/٢٠)، التسهيل (٤٨٤/٢)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، محاسن التأويل (٤٧٦/٩، ٤٧٧)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٤/١١).

(٢) ينظر تفسير ابن أبي زَمَنِين (٣١٣/٥)، زاد المسير (١٣١/٩)، التفسير الكبير (١٦٨/٣١)، تفسير العِزّ (٤٥٤/٣)، التسهيل (٤٨٤/٢)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، مراج لبيد (٦٣٣/٢)، وبه قال السُّدِّي كما في النكت والعيون (٢٧٦/٦).

(٣) في ظلال القرآن (٤١/٨).

(٤) ينظر مجاز القرآن (٢٩٩/٢)، غريب القرآن لابن قتيبة ص (٢٨٩)، جامع البيان (٢٤ / ٤٣٥، ٤٣٦) تفسير السمعاني (٢٢٧/٦)، مدارك التنزيل (٢٧٥/٤)، لباب التأويل (٢٤٩/٧)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨) البحر المديد (٣٠٤/٨)، فتح القدير (٤٤٣/٥)، وفي لسان العرب/ لبد (٣٨٥/٣): " لَبَدَ الشيءُ بِالشَّيءِ يَلْبُدُ: رَكِبَ بعضُهُ بعضاً .... ولَبَدَ الشيءُ بالأَرضِ يَلْبُدُ لُبُوداً: تَلَبَّدَ بها: أَي لَصِقَ " ا.هـ

(٥) ينظر المحكم/ لبد (٣٤٠/٩)، لسان العرب/ لبد (٣٨٥/٣)، المعجم الوسيط/ لبد (٨١٢/٢).

ومعنى قوله–ﷻ– ﴿**يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً**﴾ أي: يقول هذا الإنسانُ المغرورُ بِقُوَّتِهِ، والمفتون بماله، المتفاخر بما معه من حطام الدنيا، يقول– على سبيل التَّباهي والافتخار والمباهاة والرِّيَاءِ والسُّمْعَةِ والتَّعَالِي على غيره–: لقد أنفقت مالا كثيراً.

وفيما قال لأجله ذلك قولان:

القولُ الأَوَّلُ: أنَّهُ أراد كثرة ما أنفقه سُمعة ومُفاخرة، وكان أهل الجاهلية يُسَمُّونَ مِثْلَ ذلك مكارم، ويدعونه معالي ومفاخر(١)، وهذا هو التَّفَخُّر الكاذِبُ والتَّمَدُّحُ بإتلاف المال في غير صلاح، قال ابن عاشور: " وقد كان أهل الجاهلية يَتَبَجَّحُونَ بإتلاف المال ويَعُدُّونَهُ مَنقبة، لإيذانه بقلة اكتراث صاحبه به، قال عنترة:

وَإذَا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّرُ عن نَدَى وَكَما عَلِمْت شمائلي وَتَكَرُّمِي(٢)"(٣)

ا.هـ

وعليه: فالمراد في الآية: ما أنفقه الكافر للافتخار والمباهاة والرِّياء، فيفتخر بأنَّهُ أنفق كثيراً، كقول بعض النَّاسِ إذا أنفق على شخص: خَسِرْتُ عليه كذا وكذا، يعني: ضَحَّيْتُ بهذا المال الكثير من أجل هذا الشَّخْصِ، فهذا الإنسان الجحود يتفضل على النَّاسِ بالتَّبذير والإسراف، ويحسبه فضيلة لِجَهْلِهِ ولاحْتِجَابِهِ عن الفضيلة(٤)، فَمَنْ الجَوَادُ ؟ ومَنْ البخيل ؟ الجَوَادُ هو: الَّذي يُعطي في موضع العطاء، ويمنع في موضع المنع، والبخيل هو: الَّذي يمنع في موضع العطاء، فلو أنَّ إنساناً يعطي في غير موضع العطاء، بل لأجل المفاخرة والمباهاة؛ فهذا لا يُمْدَحُ، ولا يُسَمَّى هذا جُوداً وكَرَماً، وإنَّمَا هذه سفاهة وإسراف وتبذير، فالإنفاق لا

(١) ينظر الكشاف (٧٥٥/٤)، مدارك التنزيل (٢٧٥/٤)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، روح البيان (١٠/ ٤٣٤)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، روح المعاني (١٣٦/٣٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٢/١٥).

(٢) نُسِبَ إلى عنترة بن شداد في ديوانه ص (٤)، تاج العروس/ كمل (٣٥٣/٣٠)، وبدون نسبة في مفتاح العلوم (٢٢٩/١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٥٢/٣٠، ٣٥٣).

(٤) ينظر محاسن التأويل (٤٧٧/٩)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٤/١١).

يُمْدَحُ على الإطلاق، وإنَّمَا يُمْدَحُ الإنفاق إذا أنفق في المحل اللائق به، وأَمَّا مَنْ ينفق ماله سفاهة فهذا لا يُمْدَحُ، وليس هذا مِن الكرم ولا مِن الجود في شيء، مثل هذا الذي يقول: ﴿**أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً**﴾(١).

القول الثَّانِي: أنَّهُ أراد كثرة ما أنفقه في عداوة النَّبِيّ –ﷺ– وفي إيذاء أتباعه(٢)، حتى يعترف بفضله كُفَّارُ قريش، ويتَّخذ بهذا يداً عند أضرابه من المشركين(٣).

وعلى هذين القولين فالتَّعبير عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث، وأنَّهُ لم يفعل ذلك رجاء نفعٍ، فكأنَّهُ جعل المال الكثير ضائعاً(٤).

وقيل: إنَّ الكافر يقول ﴿**أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً**﴾ وقت الانتقام منه، وذلك يوم القيامة(٥)، قال الزمخشري: " ثم ذَكَرَ ما يقوله في ذلك اليوم، وأنَّه يقول: ﴿**أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً**﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يُسَمُّونَهَا مكارم، ويدعونها معالي ومفاخر "(٦) ا.هـ

وعليه: فالتَّعبير عن الإنفاق بالإهلاك للإشارة إلى أنَّهُ ضائع في الحقيقة، إذ لا ينتفع به صاحبه في الآخرة(٧)، بل لا يعود عليه مِنْ إنفاقه إلا التَّعَبُ والنَّدَمُ والخَسَارُ، وأمَّا مَنْ أَنْفَقَ في مرضاة الله–ﷻ–، فإنَّهُ قد تاجر مع الله–ﷻ–، وربح أضعاف

---

(١) ينظر تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٤/١١).
(٢) ينظر جامع البيان (٤٣٥/٢٤)، الوجيز للواحدي ص (١٢٠٤)، تفسير السمعاني (٢٢٧/٦) معالم التنزيل (٤٣٠/٨)، لباب التأويل (٢٤٩/٧)، تفسير الجلالين (٨٠٨/١)، السراج المنير (٣٩٤/٤)، روح المعاني (١٣٦/٣٠)، التفسير المظهرى (٢٦٥/١٠).
(٣) ينظر رموز الكنوز (٦٣٣/٨).
(٤) ينظر روح المعاني (١٣٦/٣٠)، بيان المعاني (٢٧٢/١).
(٥) ينظر الكشاف (٧٥٥/٤) ، أنوار التنزيل (٣١٣/٥)، مدارك التنزيل (٢٧٥/٤)، حاشية الشهاب (٨/ ٣٦١) روح المعاني (١٣٦/٣٠)، التفسير المنير (٢٤٤/٣٠).
(٦) الكشاف (٧٥٥/٤).
(٧) ينظر روح البيان (٤٣٤/١٠)، روح المعاني (١٣٦/٣٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي(٤٠٢/١٥)، **فَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: (لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)**. أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب/ الإيمان، باب/ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ (١/ ١٩٦) ح (٢١٤).

أضعاف ما أنفق(١): ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة/٢٦١-٢٦٢].

ثُمَّ عَابَ اللهُ-ﷻ- هذا الإنسانَ المغرورَ بقوَّتِهِ، والمفتون بماله، والمتفاخر بما معه من حطام الدُّنيا- عَابَهُ- وَوَبَّخَهُ على جهله بأنَّ رَبَّهُ-ﷻ- يراه في جميع أَحْوَالِهِ، فقال-ﷻ-: ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**﴾ [البلد/٧].

والاستفهام هنا للإنكار والتَّوبيخ، وهو كناية عن عِلْمِ الله-ﷻ- بدخيلة هذا المغرر المتفاخر، وأنَّ افتخاره بالكرم باطل(٢).

وعليه: فهذه الآية الكريمة توبيخٌ لهذا المغرورِ المَفْتُونِ إِثْرَ توبيخٍ، وتجهيلٌ في أعقاب تجهيلٍ(٣)، أي: أَيَظُنُّ هذا الجاهلُ المغرورُ المتفاخرُ، حين كان ينفق المالَ الكثيرَ رياءً وافتخاراً وحُبّاً للانتساب إلى المكارم والمعالي أو حِرْصاً على معاداة رسول الله-ﷺ-(٤) - أَيَظُنُّ- أنَّ اللهَ-ﷻ- غيرُ مُطَّلِعٍ عليه وأنَّ أَمْرَهُ قد خَفِيَ فَلَمْ يَطَّلِعْ عليه أَحَدٌ ؟! إنْ كان يَظُنُّ ذلك فهو في نهاية الجهالة وانطماس البصيرة، لأنَّ اللهَ-ﷻ- رقيبٌ مُطَّلِعٌ عليه، ولا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السَّمَاءِ، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيراً(٥)، فَعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ-ﷺ- قَالَ: قَالَ رَسُول الله-ﷺ-: (**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ**

(١) ينظر تفسير السعدي ص (٩٢٤).
(٢) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٥٣).
(٣) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (١٥/٤٠٣).
(٤) ينظر رموز الكنوز (٨/٦٣٣)، غرائب القرآن (٧/٣٤٢)، روح المعاني (٣٠/١٣٦)، التفسير المظهرى (١٠/٢٦٦).
(٥) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (١٥/٤٠٣)، تفسير الشيخ المراغى (٣٠/١٥٨)، صفوة التفاسير (٣/٥٣٥).

فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟)(١).

المعنى العام للآيات الكريمة:

أيحسب الإنسانُ المغرورُ بِقُوَّتِهِ المُتباهي بِشَدَّتِهِ– رغم ما هو فيه من تعبٍ ونصبٍ– أَنْ لَنْ يقدر اللهُ–ﷻ– على مجازاته وقهره وغلبته وبعثه وجزائه ؟

يقول هذا المغرورُ بِقُوَّتِهِ، والمفتونُ بماله، والمتفاخرُ بما معه من حطام الدُّنيا: لقد أهلكتُ وأنفقتُ مالاً كثيراً في المفاخر والعظائم والمعالي والمكارم.

أيظنُّ هذا المفتونُ المغرورُ أنَّ أحداً لم يره حين أنفق وأهلك هذا المال في المهالك والمُوبقات التي يظنُّها معالي ومكارم ؟! إنَّ الله–ﷻ– يراه، وسيحاسبه على ما قَدَّمَتْ يداه.

دروس وعبر:

أولاً: أنَّ الإنسان الكافر يَظُنُّ أنَّهُ يُعجز الله–ﷻ– ويفوته، ويَظُنُّ أنْ لَنْ يقهره ويغلبه، وَيَخَالُ أنَّهُ بِقُوَّتِهِ وجبروتِهِ ومالِهِ لا يقدر أحدٌ على الانتقام منه ومكافأته على سوء صنيعه، ويَظُنُّ أنْ لَنْ يُعيده مرة ثانية حَيَّاً بعد موته.

إنَّ الله–ﷻ– قادرٌ على بعث هذا الكافر وعلى محاسبته وجزائه، ولا غرو، فالمخلوقات كُلُّهَا تحت قهره–ﷻ– وسلطانه، ورهن قدرته، ووفق مشيئته وإرادته: **﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [المائدة/١٢٠]،: **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [الحديد/١، ٢]،: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [الأحقاف/ ٣٣]،: **﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً**

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب/ صفة القيامة، باب/ في القيامة(٦١٢/٤) ح (٢٤١٧)، وَقَالَ:" حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ".

لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة/٢٥٩].

ثانياً: أنَّ الكافر يُهلك ويُنفق الأموال فيما يزعمه عظائم ومعالي ومفاخر، وليس الأمر كما يزعم هذا السَّفيه، بل إنَّ الأموال الَّتي أهلكها كانت معول هدمٍ وأداة تخريبٍ وتَسَلُّطٍ، وسفكاً للدماء، وانتهاكاً للحرمات، وترويعاً للآمنين، وهتكاً للأعراض، وتضييعاً للعقول، وكان عاقبة أمرها سُوءًا، وذلك باستعمالها للصَدِّ عن سبيل الله-ﷻ-، وإيذاء رسوله-ﷺ-، والتَّنْكِيلِ بِمَنْ
آمن به وَصَدَّقَهُ، وهذا السَّفيهُ وأمثالُهُ مع ذلك يَحْسَبُونَ أنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنعاً، وأنَّهُمْ إذا رجعوا إلى رَبِّهِمْ يوم القيامة ستكون لهم العاقبة الحسنى، وقد حَكَى الله-ﷻ- ذلك عنهم بقوله ﴿**وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ [فصلت/٥٠]، وَكَذَبُوا، فقد خَيَّبَ اللهُ-ﷻ- ظَنَّهُمْ، وَرَدَّ عليهم بقوله ﴿**فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾ [فصلت/٥٠]، وقال-ﷻ-: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾ [الكهف/١٠٣-١٠٦]، وقال-ﷻ-: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ [الفرقان/٢٣](١).

ثالثاً: أنَّ الله-ﷻ- وَبَّخَ الإنسانَ الكافرَ السَّفِيهَ المغرورَ على بعض الأفكار والاعتقادات والتصوُّرات، كظنِّهِ ألاَّ قدرة لأحدٍ عليه، وإنفاقه المال الكثير مراءاةً وسُمعةً وافتخاراً، وجهله بأنَّ اللهَ-ﷻ- عالمٌ به مُطَّلِعٌ على جميع أقواله وأفعاله، وسائله عن ماله من أين كسبه ؟ وفي أي شيء أنفقه ؟

إنَّ الله-ﷻ- قادرٌ على كُلِّ شيءٍ من الإنسان والحيوان والجماد والنَّبات، عالمٌ بقصد كُلِّ إنسان حين ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً وحُبَّاً للانتساب إلى المعالي والمكارم، أو معاداة لرسول الله-ﷺ-، ويرى كُلَّ أَحَدٍ فيما يعمل ويجني ويكتسب وينفق: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام/٣]،: ﴿**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا**

(١) ينظر التفسير الوسيط للمجمع (١٩١٥/٣، ١٩١٦) بتصرف.

تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [التغابن /٤]،: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [المجادلة/٧]،: **﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** [فاطر/٣٨].

نِعَمُ اللَّهِ -ﷻ- عَلَى الإِنْسَانِ

قال -ﷻ-: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠)﴾ [البلد/٨-١٠].

لَمَّا أَنْكَرَ اللهُ-ﷻ- على الكافرِ الجاحدِ المتفاخرِ اغْتِرَارَهُ بِقُوَّتِهِ وكثرةِ مَالِهِ، سَاقَ جانباً من مظاهر نعمه على هذا الإنسان الجاهل المغرور لِيَعْتَبِر، ولِيَكُونَ دليلاً وتقريراً على أنَّ الله-ﷻ- عالمٌ بحاله وقادرٌ على مجازاته، وتنبيهاً على كمال قدرته-ﷻ-، وأنَّهُ المُنْعِمُ بما يَتَمَتَّعُ به الإنسانُ من البصر والنُّطق والعقل المميِّزِ بين الخير والشَّرِّ.

فأمام هذا الغرور الذي يُخَيِّلُ للإنسان أنَّهُ ذو منعة وقوَّةٍ، وأمام ضَنِّهِ بالمال وادعائه أنَّهُ بذل الكثير، يجابهه القرآنُ بفيض الآلاء عليه في خاصةِ نَفْسِهِ، وفي صميمِ تَكْوِيْنِهِ، وفي خصائص طبيعته واستعدادته، تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**} فالإنسان يغترُّ بِقُوَّتِهِ، واللهُ هو المنعم عليه بهذا القدر مِن القُوَّةِ، ويَضِنُّ بالمال، والله هو المنعم عليه بهذا المال، ولا يهتدي ولا يشكر، وقد جعل له مِن الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات(١).

هذا: والاستفهام في قوله﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ**﴾ للتقرير(٢)،لأنَّ الله-ﷻ- قد جعل للإنسان كُلَّ ذلك، ولكنَّهُ لم يشكر اللهَ-ﷻ- على هذه النعم، بل قابلها بالجحود والبطر(٣)، وقال ابن عاشور: " والاستفهام يجوز أَنْ يكون تقريرياً، وأَنْ يكون إنكارياً "(٤).

وقوله-ﷻ- ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**} وما بعده، تعليلٌ للإنكار والتَّوبيخ في قوله﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**} [البلد/٥] أو قوله ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ**} [البلد/٧] أي هذا الكافرُ الجاحدُ المغرورُ غافلٌ عن قدرة الله-ﷻ-، وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدَّال عليهما أَنَّهُ خَلَقَ مشاعرَ الإدراكِ التي منها العينان،

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤١/٨).
(٢) ينظر تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥)، التفسير المنير (٢٤٨/٣٠).
(٣) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥).
(٤) التحرير والتنوير (٣٥٣/٣٠).

وخَلَقَ آلاتِ الإبَانَةِ وهي اللسان والشَّفتان، فكيف يكون مُفِيْضُ العِلْمِ على النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالم بأحوالهم ؟! قال-ﷻ-: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك/١٤](١).

ومعنى قوله-ﷻ- ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ**﴾ أي: ألم نُنْعِمْ وَنَمْنَحْ وَنَخْلُقْ لهذا الكافر- الجاحدِ المغرورِ المُتفاخرِ بِقُوَّتِهِ وَمَالِهِ- عَيْنَيْنِ يُبْصِرُ بهما المرئيات، وَلِساناً ينطق به، فَيُعَبِّرُ عما في ضميره، وَشَفَتَيْنِ يستر بهما فَاهُ، ويستعين بهما على النُّطْقِ والأكل والشُّرب والنَّفخ وغير ذلك(٢)، فضلاً عن أنَّهُمَا زينةٌ له، وجمالٌ لِوَجْهِهِ وَفَمِهِ(٣).

واقتصر-ﷻ- على العينين، لأنَّهُمَا أنفع المشاعر، ولأنَّ المقصودَ إنكارُ ظَنِّهِ أنَّهُ لم يره أحدٌ، ولأنَّ الإبْصَارَ حاصلٌ بهما بفضل الله-ﷻ-(٤).

وقَرَنَ-ﷻ- الشَّفَتَيْنِ باللسان للدّلالة على أنَّ النُّطْقَ السَّليم، لا يتأتَّى إلا بوجودهما معا، فاللسان لا ينطق نطقاً صحيحاً بدون الشَّفَتَيْنِ، وهما لا ينطقان بدونه(٥).

ومِن دقائق القرآن أنَّهُ لم يقتصر على اللسان ولا على الشَّفَتَيْنِ، خلاف عادة كلام العرب أنْ يقتصروا عليه يقولون: ينطق بلسانٍ فصيحٍ، ويقولون: لم ينطق ببنت شفة، لأنَّ المقامَ مقامُ استدلالٍ، فجيء فيه بما له مزيد تصويرٍ لِخَلْقِ آلة النُّطق(٦).

---

(١) ينظر المرجع السابق، الموضع نفسه.
(٢) ينظر الكشاف (٧٥٥/٤)، رموز الكنوز(٦٣٤/٨)، أنوار التَّنزيل (٣١٣/٥)، مدارك التَّنزيل (٥٢٤/٤)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٤/٨)، نظم الدرر (٨/ ٤٣٠)، إرشاد العقل السليم (١٦١/٩)، السِّراج المنير (٦١٧/٤)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، روح المعاني (١٣٦/٣٠).
(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم (٤٠٤/٨)، بيان المعاني (٢٧٢/١)، التفسير المنير (٢٥٠/٣٠).
(٤) ينظر التَّحرير والتَّنوير (٣٥٤/٣٠)، التَّفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥).
(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، التَّحرير والتَّنوير(٣٥٤/٣٠)، التَّفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥).
(٦) ينظر التَّحرير والتَّنوير (٣٥٤/٣٠).

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ-ﷻ- نعمةً أُخرى أَنْعَمَ بها على الإنسان فقال-ﷻ-: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾.

والنَّجْدُ: ما ارتفع مِن الأرض، والجمعُ نِجَادٌ ونُجُودٌ وأَنْجُدٌ(١)، ومنه سُمِّيَتْ بلاد نَجْدٍ بهذا الاسم، لأنَّهَا مرتفعة عن غيرها(٢).

وفي المراد بالنَّجْدَيْنِ في قوله-ﷻ- ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ قولان:

القَوْلُ الأَوَّلُ: أَنَّهُمَا طَرِيقُ الخيرِ وطَرِيقُ الشَّرِّ(٣): وبه قال ابنُ عباس وعَلِيٌّ وابنُ مسعود(٤) وجمهورُ المفسرين(٥).

والمعنى: وهدينا هذا الإنسان وبَيَّنَا له طريق الخير والشَّرِّ، عن طريق ما أرسلنا به رسلنا، وأنزلنا به كُتبنا، وعن طريق ما منحناه من عقلٍ يُمَيِّزُ به بين الحقِّ والباطل، ثُمَّ وهبناه الاختيار لأحدهما، كما قال-ﷻ-: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**

(١) ينظر مختار الصّحاح/ نجد ص (٦٨٨)، المصباح المنير/ نجد (٥٩٣/٢)، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة/ نجد (٣٩١/٥): " (نجد) النون والجيم والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اعتلاءٍ وقوَّةٍ وإشرافٍ ".

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٥/٢٠)، البحر المحيط (٤٦٨/٨)، الدر المصون (٥٢٥/٦)، البحر المديد (٣٥٧/٨)، فتح القدير(٤٤٤/٥)، روح المعاني(١٣٦/٣٠)، و(نَجْدٌ): قِسْمٌ من الجزيرة العربيَّةِ بين الحجاز والعراق. ينظر مختار الصحاح/ نجد ص (٦٨٨)، لسان العرب/ نجد (٤١٣/٣)، النهاية في غريب الحديث/ نجد (٤٧/٥)، وقد أَكْثَرَ شعراءُ العَرَبِيَّةِ القولَ في طِيْبِ تُرَابِ نَجْدٍ وجَودةِ هَوَائِهَا وحُسْنِ نَبَاتِهَا. ينظر معجم البلدان/ نجد (٢٦٤/٥-٢٦٢)، المعجم الوسيط/ نجد (٩٠٢/٢).

(٣) ينظر معاني القرآن للفرَّاء (٢٦٤/٣)، الوجيز للواحدي ص(١٢٠٤)، الكشاف (٧٥٥/٤)، أنوار التَّنزيل (٣١٤/٥)، مدارك التَّنزيل (٥٢٤/٤)، التَّسهيل (٤٨٤/٢)، نظم الدرر (٤٣٠/٨)، اللباب (٣٤٥/٢٠)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، إرشاد العقل السليم (١٦٢/٩)، البحر المديد (٣٥٧/٨)، روح البيان (١٠/ ٤٣٦)، فتح القدير (٤٤٤/٥)، محاسن التأويل (٤٧٧/٩).

(٤) وقاله أيضاً عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، والرَّبيع بن خُثَيْم، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد ابن كعب، وعطاء الخراساني في آخرين. ينظر جامع البيان (٤٣٧/٢٤-٤٣٩)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٤/٨).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٢٠٩/١٠)، معالم التنزيل (٤٣١/٨)، التفسير الكبير (١٦٩/٣١)، رموز الكنوز (٨ / ٦٣٤) البحر المحيط (٤٧٠/٨)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧)، لباب التأويل (٢٤٩/٧)، السراج المنير (٦١٦/٤).

إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}(١)، وصار بما جعلناه له من ذلك سميعاً بصيراً عالماً، فصار موضعاً للتَّكليف(٢)، فَمَنْ ضَلَّ واختار طريق الشَّرِّ بعد ذلك فلا عذر له(٣).

وعلا به: فالنَّجْدُ لغة: المكان المرتفع، والمراد بالنَّجْدَيْنِ: طَرِيقَا الخير والشَّرِّ، وَسُمِّيَا نَجْدَيْنِ لأَنَّهُمَا لَمَّا وضحت الدلائل، وقربت الحجج، وظهرت البراهين، جُعِلا كالطَّرِيق المرتفعة العالية، التي لا تخفى على ذوي الأبصار(٤)، أو سُمِّيَا بذلك للإشارة إلى أنَّ في كُلٍّ منهما وُعُورَةً يَشُقُّ معها السُّلوك، ولا يصبر عليها إلا مَنْ جاهد نفسه ورَاضَها، وفى ذلك إيماءٌ إلى أنَّ طريقَ الشَّرِّ ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أَنَّ طريقَ الشَّرِّ أصعبُ وأشقُّ وأحوج إلى بذل الجهد حتى تُقْطَعَ إلى النهاية وتُوَصِّلَ إلى الغاية(٥).

الـ قولُ الـ ثَّانِي: أنَّ النَّجْدَيْنِ هما الثَّدْيَانِ(٦)، لأَنَّهُمَا كالطَّرِيقين لحياة الْوَلَدِ وَرِزْقِهِ(٧)، والله-ﷻ- هَدَى الطِّفْلَ الصَّغير حتى ارتضعها(٨)، قال صاحب روح البيان: " إِنَّهُمَا طريقان مُرتفعان لنزول اللبن، سببان لحياة المولود، وتمكينُ مولودٍ

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٢٠٩/١٠)، معالم التنزيل (٤٣١/٨)، التفسير الكبير (١٦٩/٣١)، التسهيل (٤٨٤/٢)، لباب التأويل (٢٤٩/٧)، البحر المديد (٣٥٧/٨)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥، ٤٠٤) بتصرف.

(٢) ينظر نظم الدرر (٤٣٠/٨)، السراج المنير (٦١٦/٤).

(٣) التفسير المظهرى (٤٢١٧/١).

(٤) ينظر التفسير الكبير (١٦٩/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧)، اللباب (٣٤٥/٢٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥).

(٥) ينظر تفسير المراغى (١٦٠/٣٠)، محاسن التأويل (٤٧٧/٩)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١١/ ١٩٦)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٣/١٥)، التفسير المنير (٢٥٠/٣٠).

(٦) ينظر الكشاف (٧٥٥/٤)، أنوار التنزيل (٣١٤/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، التسهيل (٤٨٤/٢)، إيجاز البيان (٨٧٨/٢)، إرشاد العقل السليم (١٦٢/٩)، البحر المديد (٣٥٧/٨)، روح البيان (٤٣٦/١٠)، وبه قال ابن عباس والضحاك وعكرمة أيضاً، وقتادة، وسعيد بن المسيب، وأبو حازم. ينظر جامع البيان (٤٣٩/٢٤)، الكشف والبيان (٢٠٩/١٠)، معالم التنزيل (٤٣١/٨)، المحرر الوجيز (٤٨٤/٥)، رموز الكنوز (٦٣٤/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٦٥/٢٠)، البحر المحيط (٤٧٠/٨، ٤٧١)، اللباب (٣٤٥/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، فتح القدير (٤٤٤/٥).

(٧) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٥/٢٠)، البحر المحيط (٤٧٠/٨)، اللباب (٣٤٥/٢٠)، فتح القدير (٤٤٤/٥).

(٨) ينظر التفسير الكبير (١٦٩/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧).

عاجزٍ من رضاعِ أُمِّهِ عقيبَ الولادةِ "(١). والقولُ بأنَّ النَّجْدَيْنِ: طريقا الخير والشَّرِّ، هو الأَوْلَى(٢)، وهدايةُ الطفلِ للثَّديين داخلةٌ في المعنى، لأنَّهما مِن الخير الذي وهبه اللهُ له في بداية خَلْقِهِ(٣).

وبـ عد: فالله–ﷻ– الَّذي وهب الإنسانَ العينينِ واللسانَ والشَّفتينِ، وهداه النَّجْدَيْنِ، لا يمكن للإنسان أنْ يفلت من قدرته–ﷻ–، ولا يجوز أنْ يخفى عليه شيء من سريرته، فأدواتُ الإدراك كُلُّهَا مِنَّةٌ مِن الله–ﷻ–، فكيف يحسب الإنسان بعد ذلك أنَّ الله–ﷻ– لم يطلع عليه حينما أنفق مالاً لبداً للمباهاة والرِّياء والتفضل على النَّاس، مِنْ غير ابتغاء وجه الله–ﷻ– ؟! وكيف يحسب أنَّ الله–ﷻ– لم ير ما في باطنه من النِّية الفاسدة والرِّياء ؟! كيف يحسب ذلك والله–ﷻ– هو الَّذي امتنَّ عليه بكل آلات الإدراك، وهو المُدَبِّرُ الحكيم لهذه القُوى، والإنسان لا يرى إلا بالله–ﷻ– ؟!(٤): ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل/٧٨]، ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**﴾ [المؤمنون/٧٨].

المعنى العام للآيات الكريمة:

أَلَمْ نجعل له عينين يُبصر بهما، وينظر في ملكوت السَّماوات والأرض، ويرى مِن بديع صنع الله وكمال إبداعه ؟ وَأَلَمْ نجعل له لساناً لافظاً ينطق به، ويكون ترجماناً عما يختلج به فؤاده، وما يتردد في صدره، ويكون أداة للتَّآلف والتَّعارف بينه وبين بني البشر جميعاً؟ وَأَلَمْ نجعل له شفتين يطبقهما على فمه منعاً مِن تناثر الطعام، وتمكيناً له مِن نطقٍ سديدٍ لِتُقِيمَ التَّفاهم بين النَّاس ؟ وهديناه وأرشدناه إلى

---

(١) روح البيان (٤٣٦/١٠).

(٢) ينظر جامع البيان (٤٣٩/٢٤)، التفسير الكبير (١٦٩/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٢/٧)، فتح القدير (٤٤٤/٥)، قال الطبري (٤٣٩/٢٤): " وأَوْلَى القولين بالصَّواب في ذلك عندنا: قَوْلُ مَنْ قال: عُنِيَ بذلك طريقُ الخيرِ والشَّرِّ، وذلك أنَّهُ لا قول في ذلك نعلمه غير القولين اللذين ذكرنا، والثديان– وإنْ كانا سبيلي اللبن– فإنَّ الله–ﷻ– إذ عَدَّدَ على العبد نِعَمَهُ بقوله: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ﴾ [الإنسان/٢، ٣] إنَّمَا عَدَّدَ عليه هدايته إياه إلى سبيل الخير مِنْ نِعَمِهِ، فكذلك قوله: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ " ا.هـ

(٣) ينظر بيان المعاني (٢٧٢/١).

(٤) ينظر تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٦/١١).

طريق الخير ليسلكه فينجو ويفلح، وبَيَّنَا له طريق الشَّرِّ لِيَنْأَى عنه وَيَتَجَنَّبَهُ كيلا يهلك.

دروس وعبر:

أولاً: أنَّ الكافر يَظُنُّ أنَّ قدرته لا تُغلب، وأنَّ مَالَهُ لا ينفد، وأنَّهُ لا يحاسب على ما يفعل، ولا يراجع فيما يقول، وأنَّهُ عند نفسه أكبر مِن أنْ يُحاسب، وأعظم مِن أنْ يُرَاجَع !!

وإذا سُلِّمَ لهذا الجهول أنَّ جَاهَهُ وسلطانه مِن كَسْبِ يده، وأنَّ المال الذي ينفق منه بغير حساب على شهواته وأهوائه، هو مِن ثمرة عمله– إذا سُلِّمَ له بهذا– فهل يجرؤ على أنْ يَدَّعِي– أنَّهُ هو الذي خَلَقَ نفسه، وأودع فيها هذه القوى التي يعمل بها ؟ أيجرؤ على أنْ يقول إنَّهُ هو الَّذي خلق هاتين العينين اللتين يبصر بهما، أو هو الذي خلق جهاز النُّطق الذي ينطق به، مِن لسانٍ وشفتين ؟ فإذا كان لا يملك تلك القوى المودعة فيه، فهل يملك ما تُحَصِّلُهُ له تلك القوى من جاهٍ ومالٍ وسلطانٍ ؟ إنَّهُ يستطيع– ولو جدلاً وسفهاً– أنْ يقول مشيراً إلى نفسه: هذا مَالِي قد جمعته، وهذا جاهي وسلطاني قد أقمته، ولكن لا يستطيع أبداً أنْ يقول ها هو ذا أنا الذي أوجدته(١) !! قال–ﷻ–: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ. فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**} [يونس/٣١، ٣٢]، وقال–ﷻ–: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [النحل/٧٨]، وقال–ﷻ–: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ**} [البلد/٨، ٩].

ثانياً: أنَّ الله–ﷻ– هَدَى الإنسان إلى طريق الخير والشَّرِّ بما وهبه من عقل مُمَيِّزٍ، وبما أرسل له مِن رُسُلٍ، وبما أنزل عليه مِن كُتُبٍ، وترك له بعد ذلك حُرِّيَّةَ الاختيار، أَمَا كان يجدر به أن يختار سبيل الخير، وينأى بنفسه عن سبيل الشَّرِّ، ويصعد بها عن الدنايا ويقتحم العقبة التي في طريقه: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**}.

هذا: والهداية قسمان:

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (١٥٧٣/٨).

الأول: هدايةُ دلالةٍ وإرشادٍ وبيانٍ، وهي عامةٌ لجميع النَّاس، بدعوتهم إلى الإيمان، وبيان الخير والشَّرّ والحَقّ والباطل، وهذه الهداية تكون للنَّبِيّ-ﷺ- وغيره من الدُّعاة والمرشدين، ومنها قوله-ﷻ-: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [الشورى/٥٢، ٥٣]، وقوله-ﷻ- ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان/٣]، وقوله-ﷻ- ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [فصلت/١٧].

والثاني: هدايةُ توفيقٍ ومعونةٍ وإلهامٍ، وهي المُرادة بقوله-ﷻ- ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص/٥٦]، وهذه الهداية لا يملكها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ولا داعيةٌ صالحٌ، بل هي لله-ﷻ- وحده لا شريك له.

سُبُلُ النَّجَاةِ المُوَصِّلَةُ إِلَى السَّعَادَةِ

قال-ﷻ-: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾ [البلد/١١-١٨].

لَمَّا وَبَّخَ اللهُ-ﷻ- الكافرَ المغرورَ بِقُوَّتِهِ، والمفتون بماله، والمتفاخر بما معه من حطام الدُّنيا، وَبَيَّنَ له أنَّ أفضل ما يتمتَّع به من البصر والنُّطق والعقل المميّزِ بين الخير والشَّرّ والنفع والضُّرّ، هو مِن الله-ﷻ- وحده، أَرْدَفَهُ ببيان أنَّهُ كان عليه أنْ يشكر تلك النِّعم، ويختار طريق الخير، ويرجح سبيل السَّعادة، فيفيض على النَّاس بشيء مما أفاض به عليه، وأفضل ذلك أنْ يعين على تحرير الأرقَّاء مِن البشر، أو يواسي الأيتام مِن أقاربه حين العوز وعِزَّةِ الطَّعام، أو يُطعم المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أَوَدَهُمْ لضعفهم وعجزهم، قال النَّيسابوري: " عَرَّفَ اللهُ-ﷻ- عباده وجوه الإنفاق الفاضلة، تعريضاً بأنَّ ذلك

الكافر لم يكن إنفاقه في وجهٍ مرضيّ معتدٍّ به، لابتناء قبول الطَّاعات على الإيمان الذي هو أصل الخيرات(١)" ا.هـ

وفي قوله–ﷻ– ﴿فَلا اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ خمسة مسائل:

المسألة الأُولى: الفاء في قوله–ﷻ–: ﴿فَلا اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ للتفريع على ما تَقَدَّمَ، والمقصود بهذه الآية الحَضُّ على فعل الخير بدل الشَّرِّ(٢).

المسألة الثانية: الأقوال في نوع (لا):

القول الأول: أنَّ « لا » هنا، على معناها الحقيقي، وهو النَّفْيُ(٣)، فيكون المعنى: أنَّ هذا الإنسان الذي جعلنا له عينين، لم يشكرنا على نِعَمِنَا، فلا هو اقتحم العقبة، ولا هو فعل شيئاً يُنجيه مِن عذابنا.

واستظهر أبو حيان هذا القول قائلاً: " والظَّاهِرُ أنَّ (لا) للنَّفْيِ، وهو قول أبي عبيدة
والفرَّاءِ والزَّجَّاجِ، كأنَّهُ قال: وهبنا له الجوارح وَدَلَلْنَاهُ على السَّبِيلِ، فما فعل خيراً، أي فلم يقتحم "(٤) ا.هـ

فإنْ قِيلَ: ذُكِرَتْ **(لا)** في قوله ﴿فَلا اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ مرَّة واحدة، والعرب لا تكاد تُفرد **(لا)** مع الفعل الماضي حتى تعيدها في كلام آخر، كقوله–ﷻ– ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى﴾، **فالجواب**– كما قال الفَرَّاءُ والزَّجَّاجُ–: أنَّهُ أفرد **(لا)** لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أنْ يكون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءامَنُواْ﴾ قائماً مقام التَّكرير، كأنَّهُ قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن(٥)، وقال الزمخشري– بعد أنْ تَنَحَّلَ مقالة الفرَّاء والزَّجَّاجِ–: هي متكررة في المعنى، لأنَّ المعنى: فَلاَ اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ ولا

(١) غرائب القرآن (٣٤٢/٧).
(٢) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٤/١٥).
(٣) ينظر معاني القرآن للفراء (٢٦٤/٣)، معاني القرآن للزجاج (٣٢٩/٥)، المحرر الوجيز (٤٨٥/٥)، التسهيل (٤٨٤/٢)، البحر المديد (٣٥٩/٨)، فتح القدير (٤٤٤/٥)، التفسير الحديث (٢٥٧/٢)، ونُسِبَ هذا القولُ في محاسن التأويل (٤٧٨/٩) للأكثرين.
(٤) البحر المحيط (٤٧١/٨).
(٥) ينظر معاني القرآن للفراء (٢٦٤/٣)، جامع البيان (٤٣٩/٢٤)، معاني القرآن للزجاج (٣٢٩/٥)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، فتح القدير (٤٤٤/٥).

فَكَّ رقبةً ولا أَطْعَمَ مسكيناً، ألا ترى أنَّهُ فَسَّرَ اقتحام العقبة بذلك؟ "(١) ا.هـ قال أبو حيان: " ولا يَتِمُّ له [أي الزمخشري] هذا إلا على قراءة مَن قرأ ﴿**فَكَّ**﴾ فعلاً ماضياً "(٢) ا.هـ

هذا: وذَكَرَ النيسابوري والمُقَدِّمُ أنَّ: قولهم: **(لا)** إذا دخلت على الماضي وَجَبَ تكرارها؛ قولٌ لا يلتفت إليه؛ لأنَّ القرآن نفسه حجةٌ في الفصاحة، ولم تتكرر **(لا)** في هذه الآية، وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها، وأنَّهُ لو سلم التَّكرار فـ **(لا)** المذكورة في الآية الكريمة متكررةٌ في المعنى– كما ذكر الفَرَّاءُ والزَّجَّاجُ –(٣).

قال الألوسي: " ونقل الطيبي عن أبي علي الفارسي عدم وجوب تكريرها، رادّاً على الزَّجَّاجِ في زعمه ذلك، وقال: هي كـ (لَمْ)، والتَّكرار في نحو ﴿**فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى**﴾ لا يدلُّ على الوجوب كما في ﴿**لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ**﴾ [الفرقان/٦٧]، وعلى عدم التَّكرار جاء قول أُمَيَّة(٤):

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

والمتيقَّنُ عندي أكثرية التَّكَرُّرِ، وأمَّا وُجوبه فليس بِمُتَيَقَّنٍ، والله–ﷻ– أعلم"(٥)ا.هـ

---

(١) الكشاف (٧٥٦/٤)، أي: أنَّ (لا) لم تتكرر استغناء عن تكريرها بكون ما بعدها– وهو ﴿**اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ يتضمن شيئين جاء بيانهما في قوله: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ**﴾ فكأنَّه قال: فلا فَكَّ رقبةً ولا أَطْعَمَ يتيماً أو مسكيناً. ينظر التحرير والتنوير (٣٥٦/٣٠).

(٢) البحر المحيط (٤٧١/٨)، هذا: وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائيُّ « فَكَّ » فعلاً ماضياً، « ورقبةً » نصباً « أو أَطْعَمَ » فعلاً ماضياً أيضاً، وقرأ الباقون « فَكُّ » برفع الكاف اسماً، « رقبةٍ » خَفْضٌ بالإضافة، « أو إطعامٌ » اسمٌ مرفوعٌ أيضاً، فالقراءةُ الأُولى الفعلُ فيها بَدَلٌ مِنْ قولِه « اقْتَحَمَ » فهو بيانٌ له، كأنَّه قيل: فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعَمَ ، والثانيةُ يرتفع فيها « فَكُّ » على إضمار مبتدأ، أي: هو فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ، على معنى الإباحة. ينظر السبعة في القراءات ص (٦٨٦)، الحجة في القراءات السبع ص (٣٧١)، حجة القراءات ص (٧٦٤، ٧٦٥)، الدر المصون (٥٢٥/٦، ٥٢٦)، النشر في القراءات العشر (٤٠١/٢).

(٣) ينظر غرائب القرآن (٣٤٣/٧)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١).

(٤) نُسِبَ إلى أُمية في تهذيب اللغة/ لم (٢٥٠/١٥)، لسان العرب/ لمم (٥٤٧/١٢)، وإلى أبي خِراشٍ الهذَلِيُّ في مغني اللبيب (٣٢١/١)، تاج العروس/ جمم (٤١٨/٣١)، وبدون نسبة في المحكم/ جمم (٢٢٨/٧)، الصحاح/ لمم (٣١٠/٥)، بحر العلوم (٣٤٥/٣)، الكشف والبيان (١٤٨/٩)، الإنصاف في مسائل الخلاف (٧٦/١)، مختار الصحاح/ لمم (٦١٢/١)، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/١٧)، اللباب (١٩٥/١٨) وغيرها.

(٥) روح المعاني (١٣٩/٣٠)، وينظر قول أبي علي الفارسي في التفسير الكبير (١٦٨/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٦٦/٢٠)، اللباب (٣٤٦/٢٠)، فتح القدير (٤٤٤/٥).

القولُ الثَّانِي: أنَّ (لا) للدُّعاء(١)، كقولهم: لا نَجَا ولا سَلِمَ، يعني: أسأل اللهَ ألا يُسَلِّمهُ ولا يُنجيه(٢)، وعليه فقوله ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ دعاءٌ، بمعنى أنَّه مِمَّنْ يستحق أنْ يُدْعَى عليه بألاَّ يفعل خيراً(٣).

القولُ الثَّالِثُ: قيل: (لا) مُخَفَّفَةٌ مِن أصلها (ألاَّ) الَّتِي للتَّحضيض(٤)، قال ابن هشام: " وقال آخَرُ: [لا] تَحْضِيْضٌ، والأصل (فَأَلاَ اقتحم) ثُمَّ حُذفت الهمزة، وهو ضعيفٌ "(٥) ا.هـ،

وقال أبو حيَّان:" ولا نعرف أنَّ (لا) وحدها تكون للتَّحْضِيْضِ وليس معها الهمزة "(٦) ا.هـ

القولُ الرَّابِعُ: قيل: إنَّ (لا) للنَّفْيِ فيما يُستقبل(٧)، قال الألوسي: " قيل: الكلام إخبار عن المستقبل، فليس مما يلزم فيه التكرير، أي فلا يقتحم العقبة، لأنَّ ماضيه معلوم بالمشاهدة، فالأهم الإخبار عن حاله في الاستقبال، لكي يتحقق الوقوع عَبَّرَ بالماضي "(٨) ا.هـ

القول الخامس: قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا: الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة(٩)، والمعنى: أنَّهُ يَدَّعِي إهلاكَ مَالٍ كثيرٍ في الفساد من مَيْسرٍ وَخَمْرٍ ونحو ذلك، أفَلا أَهْلَكَهُ في القُرَبِ والفضائل بِفَكِّ

(١) ينظر التسهيل (٤٨٤/٢)، حاشية الشِّهاب (٣٦٢/٨).
(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٦/٢٠)، مغني اللبيب (٣٢١/١)، اللباب (٣٤٧/٢٠)، فتح القدير (٥/ ٤٤٤)، روح المعاني (١٣٩/٣٠)، محاسن التأويل (٤٧٨/٩)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١)، إعراب القرآن وبيانه (٤٨٨/١٠، ٤٨٩).
(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٥/٥).
(٤) ينظر التسهيل (٤٨٤/٢)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، حاشية الشهاب (٣٦٢/٨)، البحر المديد (٣٥٩/٨)، روح المعاني (١٣٩/٣٠)، محاسن التأويل (٤٧٨/٩)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١)، التفسير الحديث (٢٥٧/٢)، التفسير المظهرى (٤٢١٧/١)، ونُسِبَ هذا القول في المحرر الوجيز (٤٨٥/٥)، الجواهر الحسان (٤١٤/٤) إلى الجمهور، ونُسِبَ في روح المعاني (١٣٩/٣٠) إلى ابن زيد والجبائي وأبي مسلم.
(٥) مغني اللبيب (٣٢١/١).
(٦) البحر المحيط (٤٧١/٨).
(٧) ينظر حاشية الشهاب (٣٦٢/٨)، محاسن التأويل (٤٧٨/٩)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١).
(٨) ينظر روح المعاني (١٣٩/٣٠).
(٩) ينظر جامع البيان (٤٣٩/٢٤)، الكشف (٢١٠/١٠)، زاد المسير (١٣٣/٩)، فتح القدير (٤٤٤/٥).

الرِّقاب وإطعام المساكين في زمن المجاعة، قال ابن عاشور: " وعلى هذا الوجه لا يعرِض الإشكال بعدم تكرُّر (لا)، فإنَّ شأن (لا) النافية إذا دخلت على فعل المُضِيّ ولم تتكرر؛ أنْ تكون للدُّعاء؛ إلاَّ إذا تكررت معها مثلُها معطوفةٌ عليها، نحو قوله–ﷻ– ﴿**فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى**﴾، أو كانت (لا) معطوفة على نَفْيٍ، نحو: ما خرجتُ ولا ركبتُ، فهو في حكم تكرير (لا)..... ويظهر أنَّ كُلَّ ما يصرف عن التباس الكلام كافٍ عن تكرير (لا) "(١) ا.هـ

المسألة الثَّالثة: الاقتحام: هو الدُّخول والمجاوزة بسرعةٍ وضغطٍ وشِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ(٢) بأَنْ يَرْمِي الإنسانُ نَفْسَهُ في الشَّيْءِ الذي يريده بلا رَوِيَّةٍ ولا تُؤَدَةٍ(٣)، يُقَالُ: قَحَمَ الرجلُ في الأَمْرِ قُحُومَاً: رَمَى بِنَفْسِهِ فيه فَجْأَةً بِلا رَوِيَّةٍ(٤)، وفي الحديثِ: **(أَنَا آخِذٌ بِحُجْزِكُم عَنِ النَّارِ، وأَنتم تَقْتَحِمُونَ فِيهْ هَا)**(٥) أَيْ: تَقَعُونَ فِيها(٦)، وقُحَمُ الطَّرِيقِ: مَصَاعِبُهُ،
وهُوَ مَا صَعُبَ مِنْهَا علَى السَّالِكِ(٧)، والقُحْمَةُ: الشِّدَّةُ والوَرْطَةُ والمَهْلَكَةُ(٨)، والأمرُ العظيمُ الشَّاقُّ لا يكاد يركبه أحدٌ، والجمع (قُحَمُ) مثل غُرْفَة وغُرَف(٩).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٥٦).
(٢) ينظر الكشاف (٤/٧٥٦)، المحرر الوجيز (٥/٤٨٥) مدارك التنزيل (٤/٥٢٤)، التسهيل (٢/٤٨٤)، البحر المحيط (٨/٤٧١)، الجواهر الحسان (٤/٤١٤)، البحر المديد (٨/٣٥٩)، محاسن التأويل (٩/٤٧٨)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١١/١٩٧).
(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٦٥، ٦٦)، البحر المحيط (٨/٤٧١)، اللباب (٢٠/٣٤٧)، فتح القدير (٥/٤٤٤)، بيان المعاني (١/٢٧٣)، صفوة التفاسير (٣/٥٣٤).
(٤) ينظر الصحاح/ قحم (٥/٢٨٤)، لسان العرب/ قحم (١٢/٤٦٢)، القاموس المحيط/ قحم (٤/١٥٨).
(٥) روى البخاري في صحيحه: كتاب/ الرِّقاق، باب/ الانْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي (١/٢١٠) ح (٦٤٨٣) عن أَبِي هُرَيْرَةَ –ﷺ– أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ–ﷺ– يَقُولُ: **(إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الـ نَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهِ هَا)**، ورواه مسلم في صحيحه بنحوه: كتاب/ الفضائل، باب/ شفقته–ﷺ– على أُمَّتِهِ ومبالغته في تحذيرهم مما يَضُرُّهُمْ(٤/١٧٨٨) ح (٢٢٨٤).
(٦) ينظر النِّهاية في غريب الأثر/ قحم (٤/٣٦)، تاج العروس/ قحم (٣٣/٢٢٩).
(٧) ينظر المحكم/ قحم (٣/٢٦)، لسان العرب/ قحم (١٢/٤٦٢)، تاج العروس/ قحم (٣٣/٢٢٩).
(٨) ينظر لسان العرب/ قحم (١٢/٤٦٢)، المغرب في ترتيب المعرب/ قحم (٢/١٥٩).
(٩) ينظر المصباح المنير/ قحم (٢/٤٩١)، المعجم الوسيط/ قحم (٢/٧١٧).

المسألة الرَّابِعَةُ: الضَّمِيرُ في قوله ﴿**اقْتَحَمَ**﴾ راجعٌ إلى الإنسان الَّذي نددت الآيات السابقة به في قوله–ﷻ– ﴿**أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا. أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ. أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾، والآياتُ بهذا الاعتبار متصلةٌ بسابقاتها اتصال تعقيب واستطراد، حيث تضمنت تحريضا إيجابيًّاً على ما هو الأولى عمله بدلاً من التَّباهي بالمال والاعتداد بالنَّفس، وهو أنْ يقتحم الصعب ويتغلب على ما في نفسه من طباع، فينفق ماله في تحرير الرِّقاب وإطعام فقراء اليتامى والأقارب والمعوزين في أيام المجاعات(١).

المسألة الخامسة: العَقَبَةُ: هي الطَّريق الوَعْرَةُ في الجبل الَّتي يصعب سلوكها(٢)، قال ابن منظور:" العَقَبَةُ وَاحِدَةُ عَقَبَاتِ الجِبال، والعَقَبَةُ: طريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والجمع عَقَبٌ وعِقَابٌ، والعَقَبَةُ: الجَبَلُ الطَّوِيلُ يَعْرِضُ للطَّرِيق فيأْخُذُ فيه، وهو طَويلٌ صَعْبٌ شديدٌ "(٣) ا.هـ

وعليه: فالعَقَبَةُ في الأصل: الطَّريقُ الوَعْرُ في الجَبَلِ، والتَّعبير بهذا اللفظ هنا لِمَا فيه من معاناة المشقَّة ومجاهدة النَّفس، والمراد بالعقبة هنا بَيَّنَهُ اللهُ–ﷻ– بقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ**﴾، فهذا كُلُّهُ هو معنى اقتحام العقبة المُتَمَثِّلِ في الإتيان بهذه الأمور التي فيها مَشَقَّةٌ ومجاهدةُ نَفْسٍ(٤).

وقد استعيرت العقبة لمجاهدة النَّفْسِ، وحملها على الإنفاق في سبيل الخير، لأنَّ هذه الأعمال شاقة على النَّفس، فجعلت كالَّذي يتكلف سلوكَ طريقٍ وَعْرٍ(٥).

---

(١) ينظر التفسير الحديث (٢٥٨/٢).
(٢) ينظر المحكم/ عقب (٢٤٣/١)، فتح القدير (٤٤٤/٥)، روح البيان (٤٣٦/١٠)، محاسن التأويل (٤٧٨/٩).
(٣) ينظر لسان العرب/ عقب (٣٠٢٨/٤).
(٤) ينظر تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٧/١١).
(٥) ينظر البحر المحيط (٤٧١/٨)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٤/١٥).

قال البيضاوي: " العقبة: الطَّريقُ في الجَبَلِ، استعارها بما فَسَّرَهَا –ﷻ– به من الفَكِّ والإطعام في قوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ لِمَا فيهما من مجاهدة النَّفْسِ"(١) ا.هـ

وقيل: إنَّهُ شَبَّهَ ثقل الذُّنوب على مرتكبها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وأطعم المساكين كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها(٢)، وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن أبي شيبة عن ابن عمر: أنَّ هذه العقبة: جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ; لا يُنجي منه إلا هذه الأعمال ونحوها(٣)، وأخرج ابنُ جرير عن الحسن نحوه(٤)، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس أنَّهَا النَّارُ(٥)، وفي رواية عبد بن حميد عنه: أنَّها عقبةٌ بين الجنَّةِ والنَّارِ(٦)، وعن مجاهد والضَّحاك والكلبي: أنَّهَا الصِّرَاطُ(٧)، ولعل المراد بـ (عَقَبَةٍ بين الجَنَّةِ والنَّارِ) هذا(٨).

قال الألوسي: " وهذه الأقوال إنْ صَحَّتْ يَتَعيَّنُ عليها أنْ يُرَادَ بالاقتحام: المرورُ والجوازُ بسرعة، وأنْ يُقَدَّرَ المضاف، أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ فَكُّ رقبةٍ.....، وَجَعْلُ الفَكِّ وما عطف عليه نفس الاقتحام على سبيل المبالغة في سببيته له، حتى كأنَّهُ نفسه، ومآل المعنى: فَلاَ فَعَلَ ما يَنْجُو بِهِ ويَجُوزُ بسببه

(١) ينظر أنوار التنزيل (٣١٤/٥).
(٢) ينظر الكشف والبيان (٢١٠/١٠)، معالم التنزيل (٤٣١/٨)، لباب التأويل (٢٤٩/٧)، اللباب (٢٠/ ٣٤٧)، السراج المنير (٦١٦/٤).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٤٠/٢٤) وابن أبى حاتم في تفسيره (٣٤٣٤/١٠) بالأثر (١٩٣٢٤) كلاهما بلفظ (جَبَلٌ مِن جَهَنَّمَ)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧ / ١١٨) بالأثر (٣٤٦٤٠) بلفظ (جَبَلٌ زُلَلٌ فِي جَهَنَّمَ).
(٤) ينظر جامع البيان (٤٤٠/٢٤).
(٥) تفسير ابن أبى حاتم (٣٤٣٤/١٠) الأثر (١٩٣٢٥).
(٦) الدر المنثور (٤٤٥/١٥).
(٧) نُسِبَ هذا القول في السراج المنير (٦١٦/٤) إلى مجاهد، وزاد في زاد المسير (١٣٤/٩)، غرائب القرآن (٣٤٣/٧)، اللباب (٣٤٧/٢٠) نسبته إلى الضحاك، وزاد في الكشف والبيان (٢١٠/١٠)، معالم التنزيل (٤٣١/٨) نسبته إلى الكلبي، وبدون نسبة في لباب التأويل (٢٤٩/٧).
(٨) أي الصِّراط: ينظر روح المعاني (١٣٧/٣٠).

العقبةَ الكؤودَ يوم القيامة، وبهذا يندفع ما نقله الإمام(١) عن الواحدي بعد نقله تفسيرها: بجبلٍ زُلالٍ في جهنَّمَ، وبالصِّراط، ونحو ذلك، وهو قوله " وفي التَّفْسِيرِ نَظَرٌ، لأنَّ مِن المعلوم أنَّ هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنَّم ولا جاوزوها، فحمل الآية عليه يكون إيضاحا للواضحات، ثُمَّ قال: ويدل عليه: أنَّهُ–ﷻ– لَمَّا قال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ**﴾، فَسَّرَهَا بالرَّقبة والإطعام "(٢) نَعَمْ أَنَا [الألوسي] لا أقول بشيء من ذلك حتى تصح فيه تفسيراً للآية روايةٌ مرفوعةٌ"(٣)ا.هـ

ثُمَّ عَظَّمَ اللهُ–ﷻ– أَمْرَ العقبة وفَخَّمَ شأنها في النُّفوسِ فقال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ**﴾ أي: ما الذي أعلمك شأن هذه العقبة التي قال الله–ﷻ– عنها ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ ؟ ومعناه: أنَّكَ لَمْ تَدْرِ كُنْهَ صعوبتها على النَّفس وكُنْهَ ثوابها عند الله–ﷻ– (٤)، قال سفيان بن عيينة: كُلُّ شيء قال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فإنَّهُ أخبر به، وما قال: ﴿**وَمَا يُدْرِيْكَ**﴾ فإنَّهُ لم يُخبر به(٥).

هذا: وقوله–ﷻ–: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ**﴾ حالٌ من العقبة في قوله–ﷻ–: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ للتَّنويه بها، وأنَّهَا لأهميتها يُسأل عنها المخاطبُ، هل أعلَمَهُ مُعْلِمٌ ما هي ؟ أي لم يقتحم العقبة في حال جَدارتها بِأَنْ تُقتحم، وهذا التَّنويه يفيد التَّشويق إلى معرفة المراد من العقبة، و (مَا) الأُولى استفهام، و (مَا) الثانية مثلها، والتقدير: أيُّ شيء أعلمك ما هي العقبة ؟ أي أعْلَمَكَ جواب هذا الاستفهام،

(١) يعني الإمام الرازي: التفسير الكبير (١٦٨/٣١).
(٢) التفسير البسيط (٢٦/٢٤، ٢٧).
(٣) روح المعاني (١٣٧/٣٠).
(٤) ينظر الكشاف (٧٥٦/٤)، أنوار التنزيل (٣١٤/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، التفسير المنير (٢٤٩/٣٠)، التفسير المظهرى (٤٢١٨/١).
(٥) ينظر الكشف والبيان (٢١٠/١٠)، معالم التنزيل (٤٣٢/٨)، زاد المسير (١٣٤/٩)، رموز الكنوز (٦٣٥/٨)، اللباب (٣٤٨/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، ومِن الأوَّلِ: قوله–ﷻ– ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ. لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر/٢٧–٣٠]، ومِن الثَّاني: قوله–ﷻ– ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾ [الأحزاب/٦٣].

كناية عن كونه أمراً عزيزاً يحتاج إلى مَنْ يُعلمك به، والخطاب في ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ لغير معين، لأنَّ هذا بمنزلة المثل(١).

ثُمَّ بَيَّنَ– جَلَّ ثناؤه– ما العقبة ؟ وما النَّجَاةُ منها ؟ وما وجه وطريق اقتحامها وتَخَطِّيهَا ؟ فقال: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾.

أَصْلُ الفَكِّ: الفَصْلُ بين الشَّيئين، وتخليصُ بعضِهما من بعض، يُقال: فَكَكْتُ الحَبْلَ، وفَكَكْتُ الأسير: أي خلصتُه مِن الأسر، وفَكَّ رَقَبَتَهُ: أَطْلَقَهُ وحَرَّرَهُ(٢)، قال الرازي: " الفَكُّ: فَرْقٌ يُزيل المنع، كفكِّ القيد والغُل، وفَكَّ الرَّقَبَةَ: فَرَّقَ بينها وبين صفة الرِّقِ بإيجاب الحريَّةِ وإبطال العبودية،..... وكُلُّ شيء أَطْلَقْتَهُ فقد فَكَكْتَهُ،.... ويُقَال: كانت عادةُ العرب في الأُسَارَى شَدَّ رقابهم وأيديهم، فجرى ذلك فيهم وإن لم يُشدد، ثُمَّ سُمِّيَ إطلاق الأسير فَكَاكاً "(٣) ا.هـ

والرَّقَبَةُ: اسمُ العضو المخصوص، ثم يُعَبَّرُ بها عن الجملة، وجعل في التعارف أسماء للمماليك، كما عُبِّرَ بالرَّأْسِ وبالظَّهْرِ عن المركوب، فقيل: فلانٌ يربط كذا رأساً وكذا ظهراً(٤)، قال ابنُ عاشور: " والرَّقَبَةُ مرادٌ بها الإنسان، من إطلاق اسم الجزء على كُلِّهِ، مثل إطلاق رأسٍ وعينٍ ووجهٍ، وإيثار لفظ الرَّقبة هنا لأنَّ المراد ذاتُ الأسير أو العبد، وأَوَّلُ ما يخطر بذهن النَّاظر لواحدٍ مِن هؤلاء هو رقبته، لأنَّهُ في الغالب يُوثَقُ مِن رقبته "(٥) ا.هـ

وفي المراد بِفَكِّ الرَّقَبَةِ في قوله–ﷻ– ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾ أقوالٌ أربعةٌ:

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٥٧)، وقيل: الخطاب للنَّبِيِّ–ﷺ–. ينظر جامع البيان (٢٤/٤٤١)، تفسير ابن أبي زَمَنِين (٥/١٣٤)، النكت والعيون (٦/٢٧٨)، اللباب (٢٠/٣٤٨)، روح البيان (١٠/٤٣٦).

(٢) ينظر لسان العرب/ فكك (١٠/٤٧٥)، المصباح المنير/ فكك (٢/٤٧٩)، البحر المحيط (٨/٤٦٨)، النهاية في غريب الحديث/ فكك (٣/٩٠٦).

(٣) التفسير الكبير (٣١/١٧٠).

(٤) روح البيان (١٠/٤٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/٣٥٨).

القولُ الأَوَّلُ: عِتْقُهَا وتَخْلِيْصُهَا مِن الرِّقِّ والعبودية(١)، بحيث يعتق الإنسانُ العبيدَ المملوكين، سواء كانوا في ملكه فيعتقهم، أو كانوا في ملك غيره، فيشتريهم ويعتقهم(٢)، وهذا القول هو المشهور(٣).

وسُمَّيَ المرقوقُ رقبةً لأنَّه بِالرِّقِّ كالأسير المربوط في رَقَبَتِهِ(٤)، وسُمِّيَ العِتْقُ فَكّاً لأنَّ الرِّقَ كالقَيْدِ(٥).

القولُ الثَّانِي: تَخْلِيْصُهَا من الأَسْرِ(٦)، فإنَّ فَكَاكَ الأسيرِ مِن أفضل الأعمال إلى الله–ﷻ–، والأسيرُ رُبَّمَا لا يَفُكُّهُ العَدُوُّ إلا بفدية ماليَّةٍ، ورُبَّمَا تكون هذه الفدية فدية باهظة كثيرة لا يقتحمها إلا مَن كان عنده إيمان بالله–ﷻ– بأنْ يخلف عليه ما أنفق، وأنْ يُثيبه على ما تَصَدَّقَ(٧)، قال ابنُ جُزَي: " وأمَّا فَكُّ أسارى المسلمين من أيدي الكافرين فإنَّه أعظم أجراً من العتق، لأنَّهُ واجب، ولو استغرقت فيه أموال المسلمين، ولكنه لا يُجزئ في الكفَّارات عن عتق رقبة"(٨)ا.هـ

القول الثَّالِثُ: أَنْ يُعْطِي مكاتباً ما يصرفه في فَكَاكِ رقبته(٩).

---

(١) ينظر تفسير ابن أبي زَمَنِين (١٣٤/٥)، النكت والعيون (٢٧٩/٦)، تفسير السمعاني (٢٢٩/٦)، معالم التنزيل (٤٣٢/٨)، أحكام القرآن لابن العربي (٨٠/٨)، الكشاف (٧٥٦/٤)، المحرر الوجيز (٤٨٥/٥)، زاد المسير (١٣٥/٩) التفسير الكبير (١٧٠/٣١)، تفسير العِزّ (٤٥٤/٣)، رموز الكنوز (٦٣٦/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٦٨/٢٠)، مدارك التنزيل (٥٢٣/٤)، غرائب القرآن (٣٤٣/٧)، الجواهر الحسان (٤١٦/٤)، تفسير الجلالين ص (٨٠٨)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، فتح القدير (٤٤٤/٥)، فتح البيان (٣٥٥/١٠).

(٢) تفسير القرآن للعثيمين (٧/٢٨).

(٣) قاله الألوسي في روح المعاني (١٣٧/٣٠).

(٤) ينظر النكت والعيون (٢٧٩/٦)، أحكام القرآن لابن العربي (٨٠/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٦٨/٢٠)، تفسير العِزّ (٤٥٤/٣، ٤٥٥)، اللباب (٣٤٩/٢٠)، فتح القدير (٤٤٥/٥)، فتح البيان (٣٥٥/١٠).

(٥) ينظر فتح القدير (٤٤٥/٥)، فتح البيان (٣٥٥/١٠).

(٦) ينظر النكت والعيون (٢٧٩/٦)، أحكام القرآن لابن العربي (٨٠/٨)، المحرر الوجيز (٤٨٥/٥)، تفسير العِزّ (٤٥٤/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٦٨/٢٠)، الجواهر الحسان (٤١٦/٤).

(٧) ينظر تفسير القرآن للعثيمين (٨/٢٨).

(٨) التسهيل (٤٨٤/٢، ٤٨٥).

(٩) ينظر مدارك التنزيل (٥٢٣/٤)، التفسير الكبير (١٧٠/٣١) لباب التأويل (٢٥٠/٧)، السراج المنير (٦١٦/٤)، البحر المديد (٣٠٤/٨)، روح المعاني (١٣٧/٣٠).

الـ قول الرَّا بِعُ: قيل المرادُ بِفَكِّ الرَّقَبَةِ: أَنْ يَفُكَّ المرءُ رقبةَ نفسِهِ مِن رِقِّ الذُّنوب بالتَّوبة، وبما يتكلفه من العبادات والطاعات التي يَصير بها إلى الجنَّةِ، ويتخلَّصُ بها من النَّار(١).

فإنْ قِيلَ: ما الفرق بين فَكِّ الرَّقَبَةِ، وفَكِّ النَّسَمَةِ ؟ **فالجواب:** أنَّ فَكَّ الرَّقَبَةِ: هو الإسهام في عتق الرَّقيق، وفكَّ النَّسَمَةِ: هو الاستقلال في عتقها، **فعَنِ الْـ بَـرَاءِ بْنِ عَازِبٍ –رضي الله عنه– قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّـ بِيِّ –ﷺ– فَـ قَالَ: يَا رَ سُولَ الـ لهِ، عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فَقَالَ: لَئِنْ كُـ نْتَ أَقْ صَرْتَ الْخُطْ بَةَ، لَـ قَدْ أَعْرَ ضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ لَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ ؟ قَالَ: لا، إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ: أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِ هَا، وَ فَكَّ الرَّقَ بَةِ: أَنْ تُ عِينَ فِي عِتْقِهَا....)(٢) الحديث.**

والعِتْقُ والصَّدَقَةُ: مِن أفضل الأعمال، وعن أبي حنيفة: أَنَّ العتق أفضل من الصَّدَقَةِ، وعند صاحبيه: الصَّدَقَةُ أفضلُ(٣)، والآيةُ أدلُّ على قول أبي حنيفة، لتقديم العتق على الصَّدَقَةِ فيها(٤)، وعن الشَّعبي في رَجُلٍ عنده فضلُ نفقةٍ: أيضعه في ذي قرابة، أو يعتق رقبة ؟ قال: الرَّقبة أفضلُ(٥).

وبعد: فهذه الآيةُ الكريمةُ أصلٌ من أصول التَّشريع الإسلامي، وهو تشوُّفُ الشَّارِعِ إلى الحُرِّيَّةِ(٦)، وقد جاءت السُّنَّةُ ببيان فضل عتق الرَّقيق أو فكِّ النَّسمة،

---

(١) ينظر النكت والعيون (٢٧٩/٦)، التفسير الكبير (١٧٠/٣١)، لباب التأويل (٢٥٠/٧)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٥/١٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٠٠/٣٠) ح (١٨٦٤٧)، وابن حبان في صحيحه: كتاب/ البِرِّ والإحسان، باب/ ما جاء في الطاعات وثوابها (٩٧/٢) ح (٣٧٤) وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأخرجه الدارقطني في سننه: كتاب/ الزكاة، باب/ الحَثِّ على إخراج الصَّدقة وبيان قسمتها (٥٤/٣) ح (٢٠٥٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٠/٤): " رواه أحمد، ورجاله ثقات ".

(٣) لأنَّ في الصَّدقة تخليص النَّفس من الإشراف على الهلاك، فإنَّ قوام البدن بالغذاء، وفي الفكِّ تخليصها من القيد في الأغلب، وأيضاً لَعَلَّ الأمر في الأوَّلِ أضيق. غرائب القرآن (٣٤٣/٧).

(٤) الكشاف (٧٥٦/٤)، وينظر التفسير الكبير (١٧٠/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠)، اللباب (٣٤٩/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، روح المعاني (١٣٨/٣٠).

(٥) الكشاف (٧٥٦/٤)، الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠).

(٦) التحرير والتنوير (٣٥٨/٣٠).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –ﷺ– قَالَ: سمعت رسولَ اللَّهِ –ﷺ– يقول: (مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى يُعْتِقَ فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ)(١)، وفي هذا إشعارٌ بحقيقة موقف الإسلام من الرّقِ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرِّقاب، فها هو هنا يجعل عتق الرقبة سُلَّمَ اقتحام العقبة، وَجَعَلَهُ عتقاً للمعتِقِ من النَّارِ، كُلُّ عضوٍ بعضوٍ، ومعلوم أنَّ كُلَّ مُسلم يسعى لذلك، وَجَعَلَهُ كفارةً لكلِّ يمين، وللظِّهار بين الزوجين، وكفارة القتل الخطأ، كُلُّ ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفكِّ الرِّقاب، في الوقت الذي لم يُفتح للاسترقاق إلا باب واحد، هو الأسر في القتال مع المشركين لا غير، وفي هذا رَدٌّ على المستشرقين ومَنْ تأثر بهم، في ادعائهم على الإسلام أنَّه متعطش لاسترقاق الأحرار(٢).

ومِن العقبات التي يقتحمها مَنْ يأخذ طريقه إلى الله–ﷻ– **﴿إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾** أي بَذْلُ الطعام في المجاعات وفي أيام الجدب والقحط للجِيَاعِ والمحرومين(٣).

والمَسْغَبَةُ: المَجَاعَةُ، وهي مصدرٌ على وزن المَفْعَلَة– مثل المَحْمَدةِ والمَرْحَمَةِ– مِن سَغِبَ سَغَباً: إذا جاع(٤)، قال ابنُ عطية: " و«المَسْغَبَةُ»: الجوع العام، وقد يُقال في الخاص: سَغِبَ الرَّجُلُ: إذا جاع "(٥) ا.هـ، وقال الرَّاغب: " والمَسْغَبَةُ: الجوعُ مع التَّعَبِ، ورُبَّمَا قيل في العطش مع التَّعَبِ "(٦) ا.هـ، وأخرج ابنُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب/ كفارات الأيمان، باب/ قَوْلِ اللَّهِ– تَعَالَى–: { أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }، وَأَيُّ الرِّقَابِ أَزْكَى ؟ (١٤٥/٨) ح (٦٧١٥)، ومسلم في صحيحه [واللفظ له]: كتاب/ العتق، باب/ فضل العتق (١١٤٧/٢) ح (١٥٠٩).
(٢) ينظر تتمة أضواء البيان (١٣١/٩).
(٣) التفسير القرآني (١٥٧٨/٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣٥٨/٣٠).
(٥) المحرر الوجيز (٤٨٥/٥، ٤٨٦)، وينظر البحر المحيط (٤٦٨/٨).
(٦) المفردات ص (٢٣٣)، قال ابن منظور: " سَغِبَ الرجلُ يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْباً وسَغَباً وسَغَابَةً وسُغُوباً ومَسْغَبةً: جَاعَ، والسَّغْبَةُ: الجُوعُ، وقيل: هو الجوعُ مع التَّعَبِ، وربَّما سُمِّيَ العَطَشُ سَغَباً، وليس بمُسْتعمَلٍ " لسان العرب/ سغب (٤٦٨/١).

أبي حاتم وغيرُهُ عن ابنُ عباسٍ أَنَّهُ فَسَّرَ المَسْغَبَةَ بـ "الجوع " من غير قيد(١).

والمراد بـ ﴿**يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**﴾ زمانٌ، لا النَّهار المعروف(٢)، وَوُصِفَ اليوم بالمسغبة – وهي المجاعة– على سبيل المبالغة(٣)، أو المجاز باعتبار صاحبه، نحو « ليلُك قائمٌ، ونهارُك صائمٌ »(٤).

وخَصَّ–ﷻ– الإطعام بكونه في يوم ذي مجاعة لِمَا يلي:

أ ولاً: أنَّ إخراجَ المال في وقت القحط، أثقلُ على النَّفس، وأوجب لجزيل الأجر، كما قال –ﷻ–: ﴿**لَنْ تَنالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران/٩٢](٥).

ثانياً: أنَّ النَّاسَ في زمن المجاعة يشتد شُحُّهُمْ بالمال، خشية امتدادِ زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات، فالإطعام في ذلك الزَّمَنِ أفضلُ، وهو العقبةُ، ودُوْنَ العقبةِ مصاعدُ متفاوتة(٦).

ثالثاً: أنَّ هذا القيد لحال الإطعام دليلٌ على قُوَّةِ الإيمان بالجزاء، وتقديم ما عند الله–ﷻ–، على ما في قوله–ﷻ–: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾ [الإنسان /٨]، وهذا غالبٌ في حالات الشِّدَّةِ والمسغبة، وقوله–ﷻ–: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر/٩]، فهي أعلى منازل الفضيلة في الإطعام(٧)، قال القرطبي: " إطعامُ الطعامِ فضيلةٌ، وهو مع السَّغْبِ– الذي هو الجوع– أفضلُ "(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٥/١٠) بالأثر (١٩٣٢٩)، وذكره السيوطي في الدر (٤٤٩/١٥) وزاد عزوه " للفريابي وعبد بن حميد "، وقاله أيضاً عكرمة، ومجاهد، والضَّحاك، وقتادة، وغيرُ واحدٍ: ينظر تفسير القرآن العظيم (٤٠٨/٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣٥٨/٣٠).

(٣) الدر المصون (٥٢٦/٦)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٦/١٥).

(٤) غرائب القرآن (٣٤٣/٧).

(٥) ينظر التفسير الكبير (١٧٠/٣١)، حاشية زاده (٦٦٢/٤)، روح البيان (٤٣٧/١٠)، فتح البيان (٣٥٦/١٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٦/١٥).

(٦) التحرير والتنوير (٣٥٨/٣٠).

(٧) ينظر تتمة أضواء البيان (١٣١/٩).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠)، وينظر أحكام القرآن لابن العربي (٨٣/٨)، اللباب (٣٥٠/٢٠).

ثُمَّ بَيَّنَ لهم لِمَنْ يُطعم الطعام فقال: ﴿**يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾. **الصِّنْفُ الأَوَّلُ: اليَتِيْمُ ذُو المَقْرَبَةِ**، قال-رحمه الله-: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾.

قوله ﴿**يَتِيماً**﴾ منصوبٌ على أنَّهُ مفعول به لقوله ﴿**إِطْعَامٌ**﴾، أو ﴿**أَطْعَمَ**﴾ على القراءة الأُخرى، واليتيم: هو الشخص الَّذي مات أبوه، وهو دون البلوغ(١)، والمَقْرَبَةُ: بمعنى القرابة، مصدرٌ مِيمي، مِن قَرُبَ فلانٌ مِن فلانٍ: إذا كان بينهما نَسَبٌ قريبٌ، أي: اقتحام العقبة من أكبر مظاهره: فَكُّ الرِّقَابِ، وإطعام الطعام لليتامى الأقارب، وللمساكين المحتاجين إلى العون والمساعدة(٢).

ووجه تخصيص اليتيم بالإطعام؛ أنَّهُ مَظِنَّةُ قِلَّةِ الشّبع لِصِغَرِ سِنِّهِ، وضعف عمله، وَفَقْدِ مَنْ يَعُولُهُ، ولحيائه مِن التعرض لطلب ما يحتاجه، فلذلك رَغَّبَ في إطعامه وإنْ لم يصل حَدَّ المسكنة والفقر(٣).

وقَيَّدَ اليتيمَ بِأَنْ يكون بينه وبين المُطْعِمِ قرابةٌ نَسَبِيَّةٌ؛ لأنَّه يجتمع في الإطعام حينئذ جهتا الصِّلة والصَّدقة(٤)، وفي هذا حَضٌّ على تقديم ذوي النَّسَبِ والقُرْبَى المحتاجين على الأجانب في الإطعام؛ لأنَّ الصَّدَقَةَ على المسكين صدقةٌ، وعلى القريب صدقةٌ وصِلَةٌ، وثوابها أكثر؛ لأنها صدقةٌ مِن جهة، وصِلْةُ رَحِمٍ مِن الجهة الأُخرى(٥).

---

(١) قال الرَّاغب في المفردات/ يتم (٥٥٠/١): " اليُتْمُ: انقطاعُ الصَّبِيِّ عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات مِن قِبَلِ أُمِّهِ، قال-تعالى-: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى** ﴾ [الضحى/٦] ..... جمعه: يتامى..... وكُلُّ منفردٍ يتيمٌ، يُقال: دُرَّةٌ يتيمةٌ، تنبيهاً على أنَّهُ انقطع مادتها الَّتي خرجت منها، وقيل: بيتٌ يتيمٌ، تشبيها بالدُّرَّةِ اليتيمة " ا.هـ، **وعليه:** فاليتيم: هو مَنْ مات أبوه قبل أنْ يَبْلُغَ، فإنْ بَلَغَ فإنَّه لا يكون يتيماً؛ لأنَّهُ بَلَغَ وانفصل، وكذلك لو ماتت أُمُّهُ فإنَّهُ لا يكون يتيماً، خلافاً لِمَا يظنُّه بعضُ العامة، أنَّ اليتيم مَنْ ماتت أُمُّهُ، وهذا ليس بصحيح، فاليتيم مَنْ مات أبوه؛ لأنَّه إذا مات أبوه لم يكن له كاسبٌ مِن الخلق يَكْسبُ له. ينظر تفسير القرآن للعثيمين (٨/٢٨).

(٢) ينظر التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٦/١٥).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٣٥٨/٣٠، ٣٥٩).

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٦/٥)، التفسير الكبير (١٧١/٣١)، التسهيل (٤٨٥/٢)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، الجواهر الحسان (٤١٦/٤)، حاشية زاده (٦٦٢/٤)، روح البيان (٤٣٧/١٠)، حاشية الصاوي (٢٧٢/٤)، تفسير المراغي (١٦٣/٣٠)، بيان المعاني (٢٧٣/١).

(٥) تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١).

وهذه الآيةُ يُفهم منها أنَّ الإحسان إلى القريب المحتاج أَوْلَى وأَفْضَلُ، وثوابه أعظم من الإحسان لغير القريب(١).

عن سلمان بن عامر –ﷺ–: قال: قال رسول الله–ﷺ–: **(الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذِي القَرَابَةِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ)(٢).**

قال القرطبي: " الصَّدَقَةُ على القرابة أفضلُ منها على غير القرابة، كما أنَّ الصَّدَقَةَ على اليتيم الذي لا كافل له، أفضلُ مِن الصَّدَقَةِ على اليتيم الذي يجد مَنْ يَكْفُلُهُ "(٣) ا.هـ

وقيل: يَدْخُلُ في قوله ﴿**يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾ القُرْبُ بالجوار، كما يدخل فيه القُرْبُ بالنَّسَبِ(٤).

الصِّنْفُ الثَّانِي: المِسْكِينُ ذُو الْمَتْرَبَةِ، قال–ﷻ–: ﴿**أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾.

المَتْرَبَةُ: هي الحاجةُ والافتقارُ الشَّدِيْدُ، مصدرٌ ميمي من تَرِبَ الرَّجُلُ: إذا افتقر(٥)، حتى لَكَأَنَّهُ قد لصق بالتُّراب مِن شِدّةِ الفقر، وأَنَّهُ ليس له مأوى سِوَى التُّراب(٦)، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يوطئه ويفرشه(١)، والمعنى: أَنَّهُ

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠)، اللباب (٣٥٠/٢٠)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٨/١١).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب/ الزكاة، باب/ الصَّدقة على ذي القرابة (٤٦/٣) ح (٦٥٨) وقال: " حديث حسنٌ "، وأخرجه ابن ماجة في سننه [واللفظ له]: كتاب/ الزَّكاة، باب/ فضل الصَّدقة (٥٩١/١) ح (١٨٤٤)، وأحمد في المسند (١٧٢/٢٦) ح(١٦٢٣٥)، وابن حبان في صحيحه: كتاب/ الزَّكاة، باب/ صدقة التَّطوع (١٣٢/٨) ح(٣٣٤٤) وقال محققه شعيب الأرنؤوط: " حديث صحيح ".

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٢٠).

(٤) ينظر النكت والعيون (٢٧٩/٦)، التفسير الكبير (١٧١/٣١)، روح المعاني (١٣٨/٣٠)، التفسير الوسيط للمجمع (١٩٢٠/٣).

(٥) يُقال: تَرِبَ الشيءُ: أَصابه التُّرَابُ، وتَرِبَ الرَّجُلُ: صارَ في يده التُّراب، وتَرِبَ تَرَباً: لَزِقَ بالتُّراب، وقيل لَصِقَ بالتُّراب من الفَقْر، وتَرِبَ تَرَباً ومَتْرَبةً: خَسِرَ وافْتَقَرَ فلَزِقَ بالتُّراب، والمَتْرَبةُ: المَسْكَنةُ والفاقةُ، ومِسْكِينٌ ذُو مَتْرَبةٍ: أَي لاصِقٌ بالتراب. ينظر الصحاح/ ترب (١٠٤/١، ١٠٥)، لسان العرب/ ترب (٢٢٧/١)، تاج العروس/ ترب (٦٤/٢).

(٦) ينظر الكشف والبيان (٢١١/١٠)، فتح القدير (٤٤٥/٥)، فتح البيان (٣٥٦/١٠)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٦/١٥).

مسكينٌ ليس بيديه شيء إلا التُّراب، ومعلومٌ أنَّهُ إذا قيل عن الرَّجُلِ: ليس عنده إلاَّ التُّراب، فالمعنى: أنَّهُ فقيرٌ جداً ليس عنده طعامٌ، وليس عنده كساءٌ، وليس عنده مالٌ، فهو مسكينٌ ذو متربة(٢)، قال ابن عاشور: " قوله–ﷻ– ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ صفةٌ لِمِسْكِينٍ، جُعلت المتربةُ علامةً على الاحتياج بحسب العرف، والمَتْرَبَةُ: مصدرٌ بوزن مَفْعَلَة أيضاً، وفِعْلُهُ تَرِبَ، يُقال: تَرِبَ: إذا نام على التُّراب، أي لم يكن له ما يفترشه على الأرض، وهو في الأصل كنايةٌ عن العُرُوِّ مِن الثِّيَابِ الَّتي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع"(٣)ا.هـ

وعن ابن عباس–ﷺ– أنَّهُ فَسَّرَ المسكين ذا المتربة: بالذي لا يَقِيْهِ مِن التراب شيءٌ(٤)، وفي رواية أُخرى: هو المطروحُ على ظهر الطَّريق قاعداً على التراب لا بَيْتَ له(٥)، وقال عكرمة: هو المديون المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أَحَدَ له(٦)، وقيل غير ذلك، قال الطَّبري: " وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصِّحَّةِ، قَوْلُ مَنْ قال: عُنِيَ به: أو مسكيناً قد لصق بالتُّراب مِن الفقر والحاجة؛ لأنَّ ذلك هو الظَّاهر مِن معانيه، وأنَّ قوله ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ إنما هي " مَفْعَلَةٍ " من تَرِبَ الرَّجُلُ: إذا أصابه التُّرَابُ "(٧) ا.هـ

---

(١) ينظر التفسير الكبير (١٧١/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٣/٧)، روح البيان (٤٣٧/١٠)، مراج لبيد (٦٣٤/٢).
(٢) ينظر تفسير القرآن للعثيمين (٨/٢٨، ٩).
(٣) التحرير والتنوير (٣٥٩/٣٠).
(٤) أخرجه بنحوه: ابنُ جرير في تفسيره (٤٤٥/٢٤-٤٤٣)، والحاكمُ في المستدرك: كتاب/ التفسير، باب/ تفسير سورة البلد (٥٧٠/٢) بالأثر (٣٩٣٧) وسَكَتَ عنه الذَّهبي، وينظر معالم التنزيل (٤٣٣/٨)، زاد المسير (١٣٥/٩)، رموز الكنوز (٦٣٧/٨)، روح المعاني (١٣٨/٣٠).
(٥) أخرجه بنحوه: ابنُ جرير في تفسيره (٤٤٥/٢٤-٤٤٣)، وابنُ أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٥/١٠) بالأثر (١٩٣٣٢)، والحاكمُ في المستدرك: كتاب/ التفسير، باب/ تفسير سورة البلد (٥٧٠/٢) بالأثر (٣٩٣٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وينظر النكت والعيون (٢٧٩/٦)، رموز الكنوز (٦٣٧/٨)، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٢٠)، اللباب (٣٥٠/٢٠)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٨/٨)، السراج المنير (٦١٦/٤).
(٦) ينظر قَوْلا عكرمة وابن جبير في النكت والعيون (٢٧٩/٦)، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٢٠)، تفسير القرآن العظيم (٤٠٨/٨)، فتح القدير (٤٤٥/٥) وبدون نسبة في تفسير العِزّ (٤٥٥/٣).
(٧) جامع البيان (٤٤٥/٢٤، ٤٤٦).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ–ﷻ– أنَّ هذه القُرَب والطَّاعات إنَّمَا تنفع مع الإيمان، فقال–ﷻ: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد/١٧].

وجملة: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ معطوفة على جملة ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾(١) أي: ثُمَّ كان مقتحمُ العقبةِ مِن الَّذين آمنوا، فإنَّهُ إنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ لَمْ ينتفع بشيء من هذه الطَّاعات(٢)، وفيه إعلامٌ ودليلٌ على أنَّ هذه القُرَب– مِنْ فَكِّ الرَّقبة وإطعامِ الجائع– إنَّما تنفع مع الإيمان(٣)، وإنَّمَا اشترط الإيمان مع فعل هذه المَبَارِّ، لأنَّ مَنْ فعلها دون أَنْ يكون مؤمناً لم ينتفع بها، ولم يكن له ثوابٌ عليها، إذ لا ينفع مع الكفر بِرٌّ(٤).

فَإِنْ قِيْلَ: لَمَّا كان الإيمانُ شرطاً للانتفاع بهذه الطَّاعات وجب كونه مقدماً عليها، فما السَّبب في أنَّ اللهَ–ﷻ– أَخَّرَهُ عنها بقوله ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ ؟ والجواب من وجوه ستة:

الوجهُ الأَوَّلُ: أَنَّ (ثُمَّ) للتَّرَاخِي الرُّتْبِي(٥)، فَتَدُلُّ على أنَّ مضمون الجملة المعطوفة بها أَرْقَى رُتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوف عليه(٦)، قال الزمخشري: " جاء بـ (ثُمَّ) لتراخي الإيمان وتباعده في الرُّتبة والفضيلة عن العتق والصَّدقة، لا في الوقت، لأنَّ الإيمان هو السَّابقُ المُقَدَّمُ على غيره، ولا يثبت عملٌ صالحٌ إلاَّ به "(٧) ا.هـ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان أَعْلَى

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٦/٥)، الجواهر الحسان (٤١٦/٤)، فتح القدير (٤٤٥/٥)، التحرير والتنوير (٣٦٠/٣٠).
(٢) ينظر الوجيز للواحدي ص (١٢٠٤)، التفسير الكبير (١٧١/٣١)، لباب التأويل (٢٥٠/٧).
(٣) ينظر رموز الكنوز (٦٣٩/٨)، فتح القدير (٤٤٥/٥)، صفوة التفاسير (٥٣٥/٣).
(٤) تفسير المراغي (١٦٣/٣٠)، وسيأتي في الوجه الرابع ص (٥٨) مزيد بيان عن عَمَلِ الكافر الذي عَمِلَهُ حالة كُفْرِهِ، ثُمَّ أَسْلَمَ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟
(٥) ينظر فتح القدير (٤٤٥/٥)، روح المعاني (١٣٩/٣٠)، التحرير والتنوير (٣٦٠/٣٠)، في ظلال القرآن (٨ / ٤٥)، التفسير الوسيط للطنطاوي (٤٠٦/١٥)، قال النيسابوي عن هذا الوجه: " وهو أولى الوجوه عند أصحاب المعاني " غرائب القرآن (٣٤٤/٧).
(٦) التحرير والتنوير (٣٦٠/٣٠).
(٧) تفسير الكشاف (٧٥٧/٤)، وينظر أنوار التنزيل (٣١٤/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، الدر المصون (٥٢٦/٦)، اللباب (٣٥١/٢٠)، إرشاد العقل السليم (١٦٢/٩)، روح البيان (١٠/ ٤٣٨)، التفسير المظهري (٢٦٨/١٠).

مِن العتق والإطعام(١)، وأَنَّ درجةَ ثوابِ الإيمانِ أعظمُ بكثيرٍ من درجة ثواب سائر الأعمال(٢).

الوجهُ الثَّانِي: أنَّ (ثُمَّ) لترتيب الذِّكْرِ والبيان، وليس للتَّرتيب الزَّمَنِي(٣)، لأنَّ الإيمان مشروطٌ وجوده عند العمل(٤)، كأنَّهُ قيل: ثُمَّ اذكر أنَّهُ كان وقت اقتحام العقبة مِن الذين آمنوا(٥)، كقول الشاعر:

إنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ بَعْدَ ذَلِكَ جَدُّهُ(٦)

لم يُرِدْ بقوله: (ثُمَّ سَادَ أبُوهُ) التَّأخر في الوجود، وإنَّما المعنى: ثم اذكر أنَّهُ سَادَ أبُوهُ(٧).

الوجهُ الثَّالِثُ: أَنْ يكون المعنى: ثُمَّ كان في عاقبةِ أَمْرِه مِن الَّذين وافَوْا الموتَ على الإيمان، لأنَّ الموافاةَ عليه شرطٌ في الانتفاعِ بالطاعاتِ(١).

---

(١) ينظر التسهيل (٤٨٥/٢).
(٢) ينظر التفسير الكبير (١٧١/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧).
(٣) ينظر التفسير الكبير (١٧١/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، الدر المصون (٥٢٦/٦)، اللباب (٣٥١/٢٠)، تفسير الجلالين (٨٠٩/١)، تتمة أضواء البيان (١٣٣/٩)، التفسير المنير (٢٤٨/٣٠).
(٤) قال-ﷻ-: ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ [النساء/١٢٤]، وقال-ﷻ-: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل/٩٧]، وقال-ﷻ-: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** ﴾ [الإسراء/١٩]، وقال-ﷻ-: ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [غافر/٤٠] لأنَّ الإيمان هو العمل الأساسي في حمل العبد على عمل الخير؛ يبتغي به الثَّواب، وخاصة الإنفاق في سبيل الله، لأنَّهُ بَذْلٌ بدون عوضٍ عاجلٍ. ينظر تتمة أضواء البيان (١٣٣/٩).
(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس (١٤٤/٥)، تفسير السمعاني (٢٣٠/٦)، تفسير الجلالين (٨٠٩/١)، التفسير المنير (٢٤٨/٣٠).
(٦) نُسِبَ إلى أبي نُواس في ديوانه ص (٤١)، المحرر الوجيز (٥١٩/٤)، وبدون نسبة في الكشف والبيان (٢٠٥/٤)، (١٤٦/٨)، همع الهوامع (١٩٥/٣)، مغني اللبيب (١٥٩/١)، اللباب (٢٧٨/٥) وغيرها.
(٧) ينظر التفسير الكبير (١٧١/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧).

الوجهُ الرَّابِعُ: أنَّ مَنْ أَتَى بهذه الخصال قبل إيمانه بالنَّبِيِّ –ﷺ–، ثُمَّ آمن به بعد مبعثه، فعند بعضهم أنَّهُ يُثاب على تلك الطاعات(٢).

قالوا: وَيَدُلُّ عليه ما جاء **عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ أَخْ بَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صِلَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ هَلْ لِي فِيهَا مِنْ أَجْرٍ ؟ قَالَ حَكِيمٌ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: " أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ "(٣).**

الوجهُ الخَامِسُ: قيل: المعنى: ثُمَّ كان من الَّذين آمنوا بأنَّ العتقَ والإطعامَ نافعٌ لهم عند الله –ﷻ–(٤).

الوجهُ السَّادِسُ: قيل: إنَّ {ثُمَّ} بمعنى الواو(٥)، أي: وكان هذا المُعْتِقُ الرَّقبة، والمُطْعِمُ في المَسْغَبَةِ، مِن الذين آمنوا(٦)، قال النَّحَاسُ: " قيل: إنَّ (ثُمَّ) بمعنى الواو، وليس يَصِحُّ "(١) ا.هـ

---

(١) ينظر التفسير الكبير (١٧١/٣١)، الجامع لأحكام القرآن (٧١/٢٠)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، الدر المصون (٥٢٦/٦)، اللباب (٣٥١/٢٠).

(٢) التفسير الكبير (١٧١/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، وينظر الجامع لأحكام القرآن (٧١/٢٠)، اللباب (٣٥١/٢٠)، قال صاحب تتمة أضواء البيان (١٣٣/٩): " بَحَثَ العلماءُ موضوعَ عَمَلِ الكافرِ الَّذي عَمِلَهُ حالة كُفره ثُمَّ أَسْلَمَ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟ والرَّاجح: أنَّهُ ينتفع به، كما ذكر القرطبي [٧١/٢٠] **أنَّ حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال: يا رسول اللَّه: إنَّا كنَّا نتحنَّث بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيء ؟ فقال –ﷺ–: " أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ الْخَيْرِ "، وحديث عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ , ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ ؟ قَالَ: (لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)** ومفهومه: أنَّهُ لَوْ قَالَهَا – أَيْ: لَوْ أَسْلَمَ فَقَالَهَا – كَانَ يَنْفَعُهُ، واللهُ –ﷻ– أَعْلَمُ " ا.هـ

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه [واللفظ له]: كتاب/ الأدب، باب/ مَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ فِي الشِّرْكِ ثُمَّ أَسْلَمَ (٦/٨) ح (٥٩٩٢)، ومسلم في صحيحه/ كتاب/ الإيمان، باب/ بيانِ حُكْمِ عمل الكافر إذا أسلم بعده (١/ ١١٣) ح (١٢٣).

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٧١/٢٠)، اللباب (٣٥١/٢٠)، فتح القدير (٤٤٥/٥).

(٥) ينظر تفسير ابن أبي زَمَنِين (١٣٥/٥)، الكشف والبيان (٢١١/١٠)، معالم التنزيل (٤٣٣/٨)، زاد المسير (١٣٥/٩)، الجامع لأحكام القرآن (٧١/٢٠)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، لباب التأويل (٢٥٠/٧)، اللباب (٣٥١/٢٠)، تعليق المقدم على تفسير الجلالين (١٩٩/١١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٧١/٢٠)، اللباب (٣٥١/٢٠).

فإن قِيلَ: لِم قال: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ دون أنْ يقول: (ثُمَّ كان مؤمناً)؟
فالجواب: أنَّ كونه مِن الَّذين آمنوا أَدَلُّ على ثبوت الإيمان مِن الوصف بمؤمن، لأنَّ صفة الجماعة أَقْوَى، مِنْ أَجْلِ كثرة الموصوفين بها، فإنَّ كَثْرَةَ الخيرِ خيرٌ، ثُمَّ في هذه الآية تقوية أُخرى للوصف، وهو جعله بالموصول المشعرِ بأنَّهم عُرفوا بالإيمان بَيْن الفِرق(٢).

ومعنى قوله–ﷻ– ﴿**وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ**﴾: يُوصِي بَعْضُهُمْ بعضاً بالصَّبر على الإيمان والثَّبات عليه(٣) أو بالصَّبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمِحَنِ التي يُبتلى بها المؤمن(٤).

والتَّوَاصِي بالصَّبْرِ مِن شِيَمِ أهل الإيمان والصَّلاح، قال–ﷻ–: ﴿**وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر /١–٣]، وقال–ﷻ– حكاية عن لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [لقمان/١٧].

ثُمَّ ضَمَّ إلى التَّواصي بالصَّبر، التَّواصي بالمرحمة فقال–ﷻ–: ﴿**وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ أي: يُوصِي ويَحُثُّ بَعْضُهُمْ بعضاً على التَّراحم فيما بينهم(٥)– كقوله–ﷻ–: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح/٢٩]– وعلى الرَّحمة على عباد الله وسائر خلقه(٦)،

---

(١) لم أقف على قول النحاس في معاني القرآن، ولا في إعراب القرآن، وهو موجود في تفسير السمعاني (٦/٢٣٠).
(٢) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٠).
(٣) ينظر الكشاف (٤/٧٥٧)، التفسير الكبير (٣١/١٧١)، روح المعاني (٣٠/١٣٩).
(٤) ينظر النكت والعيون (٦/٢٧٩)، الكشاف (٤/٧٥٧)، المحرر الوجيز (٥/٤٨٦)، التفسير الكبير (٣١/١٧١)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٧١)، مدارك التنزيل (٤/٥٢٤)، اللباب (٢٠/٣٥١)، الجواهر الحسان (٤/٤١٦)، السراج المنير (٤/٦١٦)، البحر المديد (٨/٣٠٤)، روح البيان (١٠/٤٣٨)، فتح القدير (٥/٤٤٥) روح المعاني (٣٠/١٣٩).
(٥) ينظر النكت والعيون (٦/٢٨٠)، زاد المسير (٩/١٣٦)، تفسير العِزِّ (٣/٤٥٥)، مدارك التنزيل (٤/٥٢٤).
(٦) ينظر الوجيز للواحدي ص (١٢٠٤)، معالم التنزيل (٨/٤٣٣)، لباب التأويل (٧/٢٥٠)، تفسير الجلالين ص (٨٠٩)، مراج لبيد (٢/٦٣٤)، بيان المعاني (١/٢٧٤).

فإنَّهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين واستكثروا مِن فعل الخير بالصَّدقة ونحوها(١).

ومِن رحمة الإنسان للنَّاسِ: إعطاءُ مُحْتَاجِهِمْ، وتعليمُ جَاهِلِهِمْ، والقيامُ بما يحتاجون إليه مِن جميع الوجوه، ومساعدتُهُمْ على المصالح الدِّيْنِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، وأنْ يُحِبَ لهم ما يُحِبُ لنفسه، ويَكْرَهُ لهم ما يَكْرَهُ لنفسه(٢).

وعلى الإنسان أيضاً أنْ يرحم الحيوان البهيم، فيرحم نَاقَتَهُ، وفَرَسَهُ، وشَاتَهُ، ونحوها، **فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رَ ضِيَ الـ لَّهُ عَنْهُ مَا – أَنَّ رَ سُولَ اللَّهِ –ﷺ– قَالَ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)(٣)، وعَنْ جَرِيرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ–: (لا يَرْحَمُ اللهُ من لا يَرْحَمُ النـاسَ)(٤).**

وخَصَّ –ﷻ– مِن أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصَّبر وتواصيهم بالمرحمة فقال: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ**﴾، لأنَّ هاتين الصِّفتين على رأس الصِّفات الفاضلة بعد الإيمان باللهِ–ﷻ–(٥)، فإنَّ الصَّبْرَ ملاك الأعمال الصالحة كُلِّهَا، لأنَّها لا تخلو مْن كَبْحِ الشَّهوة النَّفسانية، وذلك من الصَّبْرِ، والمرحمة ملاك صلاح الجماعة المسلمة، قال–ﷻ–: ﴿**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح/٢٩]، والتَّواصي بالرَّحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضاً كناية عن اتصافهم بالمرحمة، لأنَّ مَن يُوصِي بالمرحمة هو الذي عَرَفَ قَدْرَهَا وَفْضَلَهَا، فهو يفعلها قبل أنْ يُوصي بها، وفيه تعريضٌ بأنَّ أهل الشرك ليسوا مِن أهل الصَّبر ولا مِن أهل المرحمة، وقد صُرِّحَ بذلك في قوله–ﷻ–: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى**

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٧١)، اللباب (٢٠/٣٥١)، فتح القدير (٥/٤٤٥).
(٢) ينظر تفسير السعدي ص (٩٢٤).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه/ كتاب/ الأدب، باب/ في الرَّحمة (٤/٤٤٠) ح (٤٩٤٣)، والترمذي في جامعه/ كتاب/ البِرّ والصِّلَةِ، باب/ رحمة المسلمين (٤ / ٣٢٣) ح (١٩٢٤) وقال: " حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ "، وأخرجه أحمد في مسنده (١١/٣٣) ح (٦٤٩٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب/ التَّوحيد، باب/ قَوْلِ اللَّهِ– تَبَارَكَ وَتَعَالَى–: { قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى } (٩/١١٥) ح (٧٣٧٦)، وعند مسلم بلفظ (**مَنْ لا يَرْحَمِ الـ نَّاسَ لاَ يَرْحَ مْهُ الـ لَّهُ**–ﷻ–). صحيح مسلم: كتاب/ الفضائل، باب/ رَحْمَتِهِ–ﷺ– الصِّبْيَانَ وَالْعِيَالَ وَتَوَاضُعِهِ وَفَضْلِ ذَلِكَ (٤/١٨٠٩) ح (٢٣١٩).
(٥) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٦١)، التفسير الوسيط للطنطاوي (١٥/٤٠٧).

اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} إلى قوله ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ**﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥]، وقوله-ﷻ-: ﴿**كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الفجر/١٧، ١٨](١).

وَلَمَّا نَوَّهَ بالَّذين آمنوا أعقبه التَّنويه بالثَّناء عليهم وبشارتهم مُفَتَتِحاً باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز، لإحضارهم بصفاتهم في ذهن السَّامع، مع ما في اسم الإشارة من إرادة التَّنويه والتَّعظيم(٢) فقال-ﷻ-: ﴿**أُولَئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾.

وعلى به: فاسم الإشارة في هذه الآية الكريمة يعود على الَّذين آمنوا وتواصوا بالصَّبر وتواصوا بالمرحمة، قال أبو السُّعود: " أُولَئِكَ: إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حَيِّزِ صِلَتِهِ، وما فيه مِن معنى البُعْدِ مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بِبُعْدِ درجتهم في الشَّرَفِ والفضل، أي أولئك الموصوفون بالنُّعوت الجليلة المذكورة، أصحابُ الميمنة "(٣)ا.هـ

وَسَمَّي اللهُ-ﷻ- أَهْلَ الجَنَّةِ أَصْحَابَ الْمَيْمَنَةِ لأنَّهم يُعطون كُتُبَ أعمالهم بأيمانهم(٤)، ويُسلك بهم مِن طريق اليمين إلى الجَنَّةِ، ولأنَّهم أصحاب اليُمن والخير والسَّعادة(٥)، حيث إنَّ الصُّلَحَاءَ مَيَامِيْنُ على أنفسهم بطاعتهم وعلى غيرهم أيضاً(٦).

المعنى العام للآيات الكريمة:

(١) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٦١).
(٢) ينظر التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٢).
(٣) إرشاد العقل السليم (٩/١٦٢).
(٤) قال-ﷻ-: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴾ [الانشقاق/٧-٩]، ومِن ثَمَّ يَقُولُ: ﴿ **هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ** ﴾ [الحاقة/١٩].
(٥) ينظر النكت والعيون (٦/٢٨٠)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٧٢)، اللباب (٢٠/٣٥١)، السراج المنير (٤/٦١٦)، روح البيان (١٠/٤٣٨)، فتح القدير (٥/٤٤٥)، فتح البيان (١٠/٣٥٧).
(٦) ينظر روح البيان (١٠/٤٣٨).

إنَّ الكافر المغرور المفتون بما معه مِن حطام الدُّنيا؛ الذي جعلنا له عينين ولسانا وشفتين؛ لَمْ يَشْكُرْنَا على نِعَمِنَا، فلا هو اقتحم العقبة، ولا هو فعل شيئاً يُنجيه مِن عذابنا، ومَا أَعْلَمَكَ وأَخْبَرَكَ ما اقتحام العقبة ومجاوزتها وَتَخَطِّيْهَا ؟

إنَّ اقتحام العقبة ودخولها يكون بإعتاق الرَّقبة من العبودية، وتخليصها من إسار الرِّقِّ، أو المعاونة عليه، أو إطعام في يوم المجاعة– الذي يَعِزُّ فيه الطعامُ– اليتيم القريب، والمسكين المحتاج الذي لا شيء له، ولا قدرة على كسب المال لضعفه وعجزه، كأنَّهُ ألصق يده بالتُّراب من شِدّةِ الفقر، ثُمَّ كان مقتحمُ العقبةِ مِن الَّذين آمنوا، فإنَّهُ إنْ لم يكن منهم لم ينتفع بشيء من هذه الطَّاعات، وكان أيضاً من الذين يُوصِي بَعْضُهُمْ بعضاً بالصَّبر على الإيمان والثَّبات عليه، وبالتَّراحم فيما بينهم، وَرَحْمَةِ عبادِ اللهِ وسائرِ خَلْقِهِ، أولئك الموصوفون بهذه
النُّعوت الجليلة؛ أصحابُ الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جَنَّاتِ النَّعِيْمِ.

دروس وعبر:

أولاً: أنَّ نعم الله–ﷻ– تَتْرَى على الإنسان، فعليه أنْ يكون عارفاً لفضل ربه–ﷻ–، مُتَعَرِّفَاً عليه في الرخاء لِيَعْرِفَهُ في الشِّدَّةِ، حاملاً نفسه على اقتحام الشدائد والدُّخُولِ في الصَّالحات بمسارعة ومسابقة، والقيام بمشاق الأعمال وأكثرها تعباً وعناءً ومجاهدة لِنَفْسِهِ، حتى يجتاز العقبة الكئود والحاجز الصَّعْبَ الذي يحول بين المرء ورحمة رَبِّه ورضوانه في الجنَّةِ، ولا يجتازه إلاَّ بقهر النَّفْسِ ورياضتها على المَكَارِهِ، وَحَمْلِهَا على أن تكون تابعة لما جاء في الكتاب والسُّنَّةِ، لأن الجَنَّةَ قد حُفَّتْ بالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، فعن أنس بن مالك–ﷺ– قال: قال رسولُ الله–ﷺ–: **(حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ)(١).**

ثانياً: أنَّ إطعامَ الطَّعامِ فضيلةٌ، رَغَّبَ فيها الإسلام، ودعا إليه الرسول–ﷺ– وحَثَّ عليه، غير أنَّهُ مع السَّغْبِ وفي يوم المجاعة والجوع العام يكون أفضل وأزْكَى وأَنْمَى في أعمال البِرِّ، قال–ﷻ–: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب/ الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها (٢١٧٤/٤) ح (٢٨٢٢)، وأخرجه البخاري في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: كتاب/ الرِّقاق، باب/ حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ(١٠٢/٨) ح(٦٤٨٧) بلفظ **(حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ).**

رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [البلد/١١-١٨]، وقال-ﷻ-: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة/١٧٧]، وقال-ﷻ-: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا. وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان/٨-١٢]، **وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ-ﷺ- قَالَ: (لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ- الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ-ﷺ- عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ)(١)، وعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله-ﷺ-: (مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ السَّغْبَانِ)(٢).**

ثالثاً: أنَّ القُربَ والطَّاعَاتِ إنَّمَا تنفع مع الإيمان، قال-ﷻ-: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ} [البلد/١٢-١٧]، قال القرطبي: " إنَّ شَرْطَ قبول الطَّاعات الإيمانُ بالله، فالإيمانُ بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أنْ تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله-ﷻ- في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة/٥٤]، وفي صحيح مسلم **عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ،**

(١) أخرجه الترمذي في جامعه: كتاب/ صفة القيامة، باب/ أفشوا السَّلام (٦٥٢/٤) ح (٢٤٨٥) وقال: " حَدِيثٌ صَحِيحٌ "، وأخرجه ابن ماجة في سننه [واللفظ له]: كتاب/ إقامة الصلاة والسُّنَّةِ، باب/ ما جاء في قيام الليل (٤٢٣/١) ح (١٣٣٤)، ومعنى قوله (انْجَفَلَ النَّاسُ): ذهبوا مسرعين نحوه. ينظر النهاية في غريب الحديث/ جفل (٧٨٠/١).

(٢) أخرجه الحكم في المستدرك/ كتاب/ التفسير، باب/ تفسير سورة البلد (٥٧٠/٢) ح (٣٩٣٥) وقال: " حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي.

فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ ؟ قَالَ: " لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ "(١) اهـ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٧١)، والحديث سبق تخريجه ص (٣١).

كُفْرَانُ الآيَاتِ سَبِيْلُ الشَّقَاءِ

قال-ﷻ-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ** (٢٠) ﴾ **[البلد/١٩، ٢٠].**

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ-ﷻ- أَهْلَ الإيمانِ والعملِ الصَّالِحِ، ذَكَرَ ضِدَّهُمْ، وهم أهل الكفر والمعاصي، وبَيَّنَ سوء عاقبتهم، فقال-ﷻ-: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ**﴾.

وَقَرَنَ-ﷻ- بين الأَبْرَارِ والفُجَّارِ على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجَنَّةِ وأهل النَّارِ، وبين السُّعداء والأشرار(١).

ومعنى قوله-ﷻ- ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا**﴾ أي بالقرآن، أو بما هو أعم منه، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التي تَدُلُّ على الخالق-ﷻ-(٢)، قال القاسمي: " أي: كفروا بأدلتنا من الكُتب والرُّسُلِ وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق التي يُرْتَقَى بها إلى معرفة الصِّراط الذي تجب الاستقامة عليه في الاعتقاد والعمل "(٣) ا.هـ

وَلَمْ يَحْتَجْ هنا إلى ذِكْرِ أوصافٍ أُخرى لفريق المشأمة غير أنْ يقول: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا**﴾ لأنَّ صفة الكفر تُنهي الموقف، فلا حسنة مع الكفر، ولا سيِّئة إلا والكفر يتضمنها أو يُغَطِّي عليها، فلا ضرورة للقول بأنَّهم الَّذين لا يفكُّون الرِّقاب ولا يُطعمون الطعام، ثُمَّ هم الَّذين كفروا بآياتنا، فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيءٌ من ذلك حتى لو فعلوه(٤)!

فإنْ قيل: لِم أَتَى باسم الإشارة في الحديث عن المؤمنين، حيث قال-ﷻ-: ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾، وأَتَى بضمير الغَيْبَةِ والفصل في الحديث عن الكافرين، حيث قال-ﷻ-: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ**﴾ ؟

فالجواب: أنَّهُ أشار إلى المؤمنين تكريماً لهم، وأنَّهم حاضرون عنده-ﷻ- في مقام كرامته، واستعمل اسم الإشارة [أولئك] الدَّال على البُعْدِ، فلم يقل [هؤلاء] إيذاناً

(١) صفوة التفاسير (٥٣٦/٣).
(٢) ينظر فتح القدير (٤٤٥/٥)، فتح البيان (٣٥٧/١٠).
(٣) محاسن التأويل (٤٧٩/٩)، وينظر تعليق المقدم على تفسير الجلالين (٢٠٥/١١).
(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤٥/٨).

ببُعْدِ منزلتهم عنده–ﷻ–، ونيلهم شرف الحظوة والقُرْبِ منه، وأمَّا الكافرون فَذَكَرَهُمْ بضمير الغَيْبَةِ [هم] إشارة إلى أنَّهم غائبون عن مقام كرامته(١)، واعْتُبِرُوا غيباً كأنَّهم بحيث لا يصلحون بوجهٍ من الوجوه لأنْ يكونوا مشاراً إليهم(٢).

وقيل: الحكمة فيه أنَّ اسم الإشارة يُؤتى به لتمييز ما أُريد به أكمل تمييز، ولا كذلك الضَّمير، فإنَّ اسم الإشارة البعيد يفيد التَّعظيم لتنزيل رفعة محل المشار به إليه منزلة بُعْدِ درجته، فاسم الإشارة للتَّعظيم، والإشارة إلى تمييزهم واستحقاقهم كمال الشُّهرة، بخلاف أصحاب المشأمة، والضمير لا يُفيد ذلك(٣).

قال الألوسي: " وَفِيْهِ أنَّ اسم الإشارة كما يُفيد التَّعظيم، يُفيد التَّحقير، كما في قوله–ﷻ– ﴿**فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾ [الماعون/٢]، وكمال الشُّهرة كما يكون في الخير يكون في الشَّرِّ، فأيُّ مانعٍ مِن اعتبار استحقاقهم كمال الشُّهرة في الشَّرِّ"(٤)ا.هـ

وَسَمَّي اللهُ–ﷻ– أهلَ النَّارِ أصحابَ المَشْأَمَةِ لأنَّهم يُعطون كُتب أعمالهم بشمائلهم ومِنْ وراء ظهورهم، ويُسلك بهم شمالاً إلى النَّارِ، ولأنَّهم أصحاب الشُّؤم والشَّرِّ والشَّقاوة(٥)، حيث إنَّ الفُسَّاقَ مَشَائِيْمُ على أنفسهم بمعصيتهم وعلى غيرهم أيضاً(٦)، قال القرطبي: " ويَجْمَعُ هذه الأقوال أَنْ يُقال: إنَّ أصحابَ المَيمَنَةِ أصحابُ الجَنَّةِ، وأصحابَ المَشْأَمَةِ أصحابُ النَّارِ، قال الله–ﷻ–: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ**﴾(٧)، وقال–ﷻ–:

---

(١) ينظر حاشية زاده (٦٦٣/٤)، إعراب القرآن وبيانه (٤٩٢/١٠).
(٢) ينظر روح المعاني (١٤٠/٣٠).
(٣) ينظر حاشية الشهاب (٣٦٢/٨)، روح المعاني (١٤٠/٣٠).
(٤) روح المعاني (١٤٠/٣٠).
(٥) ينظر النكت والعيون (٢٨٠/٦)، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٢٠)، اللباب (٣٥١/٢٠)، السراج المنير (٦١٦/٤)، روح البيان (٤٣٨/١٠)، فتح القدير (٤٤٥/٥)، فتح البيان (٣٥٧/١٠).
(٦) ينظر روح البيان (٤٣٨/١٠).
(٧) قال–ﷻ–: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ = =مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ**﴾ [الواقعة/٢٧–٤٠].

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾(١) وما كان مثله(٢) "(٣) ا.هـ

ثُمَّ قال–ﷻ– ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: أنَّ هؤلاء الكافرين بآيات الله تتسلط عليهم نارٌ عظيمةٌ شديدةُ الإحراق، مطبقةٌ ومغلقةٌ عليهم، لا يُفتح لهم منها بابٌ، ولا يُخرجون منها من غمٍ أُصِيبُوا به، ولا يخفف عنهم مِن عذابها، فهم فيها أَبَدَ الآبَادِ(٤).

وعليه: فمعنى ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾: مُغلقةٌ مُطبقةٌ(٥)، يُقال: أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُهُ: إذا أَغْلَقْتُهُ وَأَطْبَقْتُهُ، والاسم فيهما: الإِصَادُ والوِصَادُ(٦)، وقيل المراد: إحاطة النَّارِ بهم من جميع الجوانب، كقوله–ﷻ–: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف/٢٩](٧)، وقيل المعنى: عليهم نارٌ مؤصدةُ الأبوابِ، إلاَّ أنَّ ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ جُعلت صفة للنَّارِ إشعاراً بإحاطتهم، فأصل التركيب (مؤصدةُ

---

(١) قال–ﷻ–: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لاَ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة/٤١–٤٤].

(٢) ومنه قوله–ﷻ– ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَى سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ . بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق/٧–١٥]، وقوله–ﷻ–: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ . وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ . لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة/١٩–٣٧].

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٢٠).

(٤) ينظر بحر العلوم (٥٦١/٣)، معالم التنزيل (٤٣٣/٨)، زاد المسير (١٣٦/٩)، التفسير الكبير (١٧٤/٣١)، لباب التأويل (٢٥١/٧)، حاشية زاده (٦٦٣/٤)، روح البيان (٤٣٩/١٠)، التفسير الوسيط للمجمع (١٩٢٢/٣).

(٥) وبه قال أبو هريرة، وابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب القرظي، وعطية العوفي، والحسن، وقتادة، والسُّدي: ينظر تفسير القرآن العظيم (٤٠٩/٨).

(٦) ينظر مجاز القرآن (٢٩٩/٢)، جامع البيان (٤٤٧/٢٤)، تفسير السمعاني (٢٣١/٦)، لسان العرب/ أصد (٧٣/٣)، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٢٠)، أنوار التنزيل (٣١٤/٥)، مدارك التنزيل (٥٢٤/٤)، البحر المحيط (٤٦٩/٨)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، فتح القدير (٤٤٥/٥).

(٧) ينظر التفسير الكبير (١٧٤/٣١)، غرائب القرآن (٣٤٤/٧)، اللباب (٣٥٣/٢٠).

الأبوابِ)، فلمَّا تُركت الإضافة عَادَ التَّنوين إليها، لأنَّهُمَا يتعاقبان، مِن أَوْصَدْتُ البابَ– من المعتل الفاء– وآصَدْتُهُ– بالمَدِّ من المهموز–: إذا أطبقتُهُ وأغلقتُهُ وأَحْكَمْتُهُ(١).

وهناك قراءتان متواتران في كلمة ﴿**مُؤْصَدَةٌ**﴾:

قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةُ وَحَفْصٌ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفٌ ﴿**مُؤْصَدَةٌ**﴾ بِالْهَمْزِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿**مُوْصَدَةٌ**﴾ بِغَيْرِ هَمْزٍ(٢).

فالقراءة الأُولى ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ تحتمل وجهين:

للأَوَّلُ: أنَّهَا مأخوذةٌ من آصَدْتُ البابَ، أي: أَغْلَقْتُه، أُوْصِدُهُ، فهو مُؤْصَدٌ، **والثَّانِي:** يُحتمل أَنْ تكونَ مِنْ أَوْصَدْتُ، ولكنَّهُ هَمَزَ الواوَ على لغةِ مَنْ يهمز الواو إذا كان قبلها ضمَّةٌ، نحو (مؤسى).

والقراءة الثَّانية ﴿مُوْصَدَةٌ﴾ تحتمل وجهين:

للأَوَّلُ: أنَّهَا مأخوذةٌ من {أَوْصَدْتُ}، **والـ ثَّانِي:** يجوز أنْ تكون مِنْ (آصَدْتُ)، وخُفِّفَتِ الهمزةُ لسكونها بعد ضَمَّةٍ(٣).

قال السَّمِينُ: " والظَّاهِرُ أنَّ القراءتَيْنِ من مادتين: الأُوْلَى مِنْ آصَدَ يُؤْصِدُ، كأَكْرَمَ يُكْرِمُ، والثَّانية مِنْ أَوْصَدَ يُوْصِدُ، مثل أَوْصَلَ يُوْصِلُ "(٤) ا.هـ

المعنى العام للآيات الكريمة:

والَّذين جحدوا بآياتنا التَّنزيليةِ والآياتِ الكونيَّةِ الدَّالةِ على قدرتنا، هم أصحابُ الشُّؤمِ والبُؤسِ الَّذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، عليهم نارٌ شديدةُ الإحراقِ، مغلقةٌ عليهم بحيث لا يستطيعون الخروج منها، ومطبقةٌ مِن كُلِّ جانبٍ، فلا خلاص لهم منها.

دروس وعبر:

(١) ينظر التفسير الكبير (١٧٤/٣١)، روح البيان (٤٣٩/١٠).
(٢) السبعة في القراءات ص (٦٨٦)، الإقناع في القراءات السبع ص (٤٧٧)، النشر (٣٩٥/١).
(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤٨٦/٥)، التفسير الكبير (١٧٤/٣١)، البحر المحيط (٤٧١/٨)، الدر المصون (٥٢٦/٦)، اللباب (٣٥٢/٢٠)، روح البيان (٤٣٩/١٠).
(٤) الدر المصون (٦ / ٥٢٦)، وينظر اللباب (٣٥٢/٢٠).

أولاً: أنَّ الَّذين كَذَّبُوا بآيات الله-ﷻ- وأنكروها ولم يؤمنوا بها مع كمال ظهورها ووضوح حجتها؛ هُمْ- دُون غيرهم- أربابُ الشُّؤمِ والشَّرّ والشَّقَاءِ الَّذين يأخذون صحائف أعمالهم بشمائلهم ومن وراءِ ظُهُورِهِم، و يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ**﴾ [البلد/١٩]،: ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا**﴾ [الانشقاق/١٠-١٥]،: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة/ ٣٩]،: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ [الحج/٥٧]،: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ [الروم/١٦].

ثانياً: أنَّ مصير الكُفَّارَ إلى النَّارِ التي تُطبق وتُغلق أبوابها عليهم، لا يُفتح لهم منها بابٌ، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها، وما هم منها بمخرجين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ [البقرة/١٦١، ١٦٢]،: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾ [فاطر/٣٦، ٣٧]،: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء/٥٦]،:﴿**وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ [النحل/ ٨٥].

الخاتمة

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبَعَ هداه، **وبعد:** فمن خلال معايشتي لتفسير سورة البلد، خَلُصْتُ إلى النَّتائج التالية:

أ ولاً: أنَّ الله–ﷻ– أَقْسَمَ بِمَكَّةَ البلدَ الحرامَ، لِحُرْمَتِهَا وشَرَفِهَا، لأنَّ فيها أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، ولأنَّها مَوْلِدُ الرُّسولِ–ﷺ–، وموطنُ آبائه مِن لدن إسماعيل–عليه السلام–، إيماءً إلى شرف رسوله –ﷺ–، وتعظيماً لِمَنْزِلَتِهِ ومكانته عند رَبِّهِ–ﷻ–: **﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾** [البلد/١–٢].

ثانياً: أنَّ الله–ﷻ– خَلَقَ الإنسان في كَبَدٍ ومَشَقَّةٍ مِن يومِ ولادته إلى يوم القيامة، إشارة إلى أنَّ العاقل ينبغي أنْ يُؤمن ويعمل صالحاً كي يدخل الجنَّةَ، فيستريح من معاناة الشَّدائد، ولا تُسلمه أعماله القبيحة إلى النَّارِ، وبئس المصير: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ﴾** [البلد/٤].

ثالثاً: أنَّ الله–ﷻ– امْتَنَّ على عباده بِنِعَمٍ جليلةٍ، حَثَّاً لهم على أنْ يُؤَدُّوا شُكرها، ويقوموا بِحَقِّهَا، ويجاهدوا في تحقيقها، حتى يجتازوا العقبة الكُئُود التي تعترض طريقهم إلى الجنَّةِ، وذلك بإنفاق المال في فَكِّ إِسَارِ الأَرِقَّاءِ مِن قَيْدِ العبودية، وفي إطعام الفقراء واليتامى والمساكين، وذلك بعد أنْ يكون الإيمان قد تَمَكَّنَ من قلوبهم: **﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ. وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ. فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾** [البلد/٨–١٨].

رابـعاً: أَنَّ النَّاسَ يوم القيامة صِنفان: أهل اليمين والبركة، وهم أصحاب الجنَّةِ، وصنف الشُّؤْمِ والبوار، وهم أهل النَّارِ: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ**﴾ [البلد/١٧-٢٠]، ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**} [الشورى/٧]،: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا**} [الانشقاق/٧-١٥].

هذا وبالله -ﷻ- التَّوفيق

﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ **[الصافات/١٨٠-١٨٢]**

وصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن

فهرس المصادر والمراجع

أولاً/ كتب القراءات:

– الإقناع في القراءات السبع للإمام أبي جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري ت ٥٤٠هـ، ط دار الصحابة للتراث– بدون تاريخ.

– الحجة في القراءات للإمام الحسين بن أحمد بن خالويه ت ٣٧٠هـ، تحقيق د/ عبد العال مكرم، ط دار الشروق– بيروت– الرابعة ١٤٠١هـ.

– حجة القراءات للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ت ٤٠٣هـ، تحقيق/ سعيد الأفغاني، ط مؤسسة الرسالة– بيروت– الثانية ١٤٠٢هـ.

– السبعة في القراءات للإمام أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ت ٣٢٣هـ، تحقيق د/ شوقي ضيف، ط دار المعارف– القاهرة– الثانية ١٤٠٠هـ.

. النشر فى القراءات العشر للإمام محمد بن محمد بن الجزرى ت ٨٣٣هـ، تحقيق/ علي الضباع، ط المطبعة التجارية الكبرى– بدون تاريخ.

ثانياً/ كتب التفسير وعلوم القرآن:

– الإتقان في علوم القرآن للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار التراث– القاهرة– بدون تاريخ.

– أحكام القرآن للإمام محمد بن عبد الله الأندلسي، المعروف بابن العربي ت ٥٤٣هـ، ط دار الكتب العلمية– بدون تاريخ.

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام محمد بن محمد العمادي، المعروف بأبي السعود ت ٩٨٢هـ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت– بدون تاريخ.

– أسرار ترتيب القرآن للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ، ط دار الفضيلة للنشر والتوزيع– بدون تاريخ.

– أسلوب القسم الظَّاهر في القرآن، بلاغته وأغراضه، د/ سامي عطا حسن، ط جامعة آل البيت– المملكة الأردنية الهاشمية– بدون تاريخ.

– أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي ت ٦٩١هـ، تحقيق/ محمد المرعشلي، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– الأولى ١٤١٨هـ.

– إيجاز البيان عن معاني القرآن للإمام محمود بن أبي الحسن النيسابوري ت ٥٥٠هـ، ط دار الغرب الإسلامي– بيروت ١٤١٥هـ.

– بحر العلوم للإمام أبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ت ٣٧٣هـ، تحقيق د/ محمود مطرجي، ط دار الفكر بيروت– بدون تاريخ.

– البحر المحيط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، تحقيق الشيخ/ عادل عبد الموجود، الشيخ/ علي معوض، ط دار الكتب العلمية بيروت– الأولى ١٤٢٢هـ.

– البحر المديد للإمام أحمد بن محمد بن عجيبة ت ١٢٢٤هـ، تحقيق/ أحمد رسلان، الناشر د/ حسن عباس، القاهرة ١٤١٩هـ.
– البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية–عيسى البابي الحلبي– الأولى ١٣٧٦هـ.
– بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز للإمام محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ت ٨١٧هـ، تحقيق/ محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣هـ.
– البيان في عَدِّ آي القرآن للإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الدَّاني ت ٤٤٤هـ، تحقيق/ غانم قدوري الحمد، ط مركز المخطوطات والتراث– الكويت– الأولى ١٤١٤هـ.
– بيان المعاني للشيخ مُلاَّ حويش آل غازى عبد القادر، ط مطبعة الترقي– دمشق ١٣٨٢هـ.
– تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم، ط دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ.
– التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣هـ، ط دار سحنون– تونس ١٩٩٧م.
– التسهيل لعلوم التنزيل للإمام محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبي الغرناطي ت ٧٤١هـ، تحقيق د/ عبد الله الخالدي، ط دار الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت– الأولى ١٤١٦هـ.
– تفسير آيات الأحكام للشيخ/ محمد علي السايس، ط المكتبة العصرية ٢٠٠٢م.
– التفسير البسيط للإمام علي بن أحمد الواحدي ت ٤٦٨هـ، تحقيق د/ نورة الورثان، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية ١٤٣٠هـ.
– تفسير الجلالين للإمامين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ت ٨٦٤هـ وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ،ط دار الحديث بالقاهرة– الأولى–بدون تاريخ.
– تفسير جزء عم للشيخ/ محمد عبده، طبعة دار الشعب– بدون تاريخ.
– التفسير الحديث للشيخ/ محمد عزت دروزة، ط دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة– دار الغرب الإسلامي بدمشق– بدون تاريخ.
– تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ/ عبد الرحمن ابن ناصر بن السعدي، ط مؤسسة الرسالة– الأولى ١٤٢٠هـ.
– تفسير القرآن للإمام أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ت ٤٨٩هـ، تحقيق/ ياسر إبراهيم، غنيم عباس، ط دار الوطن– الرياض ١٤١٨هـ.
– تفسير القرآن للإمام عِزِّ الدِّينِ عبد العزيز بن عبد السلام ت ٦٦٠هـ، تحقيق د/ عبد الله الوهبي، ط دار ابن حزم– بيروت– الأولى ١٤١٦هـ.
– تفسير القرآن للشيخ/ أحمد مصطفى المراغي ت ١٣٧١هـ، ط مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي– مصر– بدون تاريخ.
– تفسير القرآن للشيخ/ محمد بن صالح العثيمين ت ١٤٢١هـ، طبعة خاصة بالمؤلف ١٤١٣هـ.
– تفسير القرآن العزيز للإمام محمد بن عبد الله بن أبي زَمَنِين ت ٣٩٩هـ، تحقيق/ حسين عكاشة، مصطفى الكنز، ط مطبعة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر– الأولى ١٤٢٣هـ.

– تفسير القرآن العظيم للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ، تحقيق/ سامي سلامة، ط دار طيبة للنشر والتوزيع– الثانية ١٤٢٠هـ.
– تفسير القرآن العظيم للإمام عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ، تحقيق/ أسعد الطيب، ط مكتبة نزار مصطفى الباز– السعودية– الثالثة ١٤١٩هـ.
– التفسير القرآني للقرآن للدكتور/ عبد الكريم الخطيب، ط دار الفكر العربي– القاهرة– بدون تاريخ.
– التفسير الكبير للإمام محمد بن عمر التميمي الرازي ت ٦٠٦هـ، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– بدون تاريخ.
– التفسير المظهري للشيخ محمد ثناء الله العثماني المظهري، تحقيق/ غلام تونسي، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٢٥هـ.
– التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط دار الفكر المعاصر– دمشق– الثانية ١٤١٨هـ.
– التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ط دار نهضة مصر– القاهرة– الأولى ١٩٩٧م.
– التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية، ط مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
– جامع البيان في تأويل القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري ت ٣١٠هـ، تحقيق الشيخ/ أحمد شاكر، ط مؤسسة الرسالة– الأولى ١٤٢٠هـ.
– الجامع لأحكام القرآن للإمام محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي ت ٦٧١هـ، تحقيق/ هشام البخاري، ط دار عالم الكتب– الرياض– الثانية ١٤٢٣هـ.
– الجواهر الحسان للإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ت ٨٧٥هـ، ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات– بيروت– بدون تاريخ.
– حاشية زاده على تفسير البيضاوي للإمام محمد بن مصطفى القوجوي، المعروف بشيخ زاده ت ٩٥١هـ، ط إحياء التراث العربي– بدون تاريخ.
– حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للإمام أحمد ابن محمد بن شهاب الدين الخفاجي ت ١٠٦٩هـ، ط دار صادر بيروت– بدون تاريخ.
– حاشية الشيخ أحمد الصاوي ت ١٢٤١هـ على تفسير الجلالين، ط إحياء الكتب العربية– فيصل عيسى الحلبى– القاهرة– بدون تاريخ.
– الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للإمام أحمد بن يوسف السمين الحلبي ت ٧٥٦هـ، تحقيق الشيخ/ علي معوض وآخرين، ط دار الكتب العلمية– بيروت– الأولى ١٤١٤هـ.
– الدر المنثور في التفسير المأثور للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ، ط دار هجر– مصر– بدون تاريخ.
– دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للإمام محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي ت ١٣٩٣هـ، ط مكتبة ابن تيمية– القاهرة– الأولى ١٤١٧هـ.

– رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز للإمام عبد الرزاق بن رزق الله بن خلف الرسعني ت ٦٦١هـ، تحقيق د/ عبد الملك دهيش، ط مكتبة الأسدي– مكة المكرمة– الأولى ١٤٢٩هـ.
– روح البيان في تفسير القرآن للإمام إسماعيل حقي بن مصطفى البرسوي ت ١١٢٧هـ، ط دار إحياء التراث العربي– بدون تاريخ.
– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ت ١٢٧٠هـ، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– بدون تاريخ.
– زاد المسير في علم التفسير للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ، ط المكتب الإسلامي– بيروت– الثالثة ١٤٠٤هـ.
– السراج المنير للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني ت ٩٧٧هـ, ط دار الكتب العلمية– بيروت– بدون تاريخ.
– صفوة التفاسير للشيخ/ محمد علي الصابوني، ط دار الصابوني– القاهرة– الأولى ١٤١٧هـ.
– غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨هـ، تحقيق/ زكريا عميرات، ط دار الكتب العلمية بيروت– الأولى ١٤١٦هـ.
– فتح البيان للشيخ محمد صديق حسن خان القنوجي ت ١٣٠٧هـ، ط دار الفكر العربي– بدون تاريخ.
– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن على الشوكاني ت ١٢٥٠هـ، ط دار الفكر بيروت– بدون تاريخ.
– فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة للإمام محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس ت ٢٩٤هـ، تحقيق/ غزوة بدير، ط دار الفكر– دمشق– الأولى ١٤٠٨هـ.
– في ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب، ط دار الشروق– القاهرة– بدون تاريخ.
– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري ت ٥٣٨هـ، ط دار الكتاب العربي– بيروت ١٤٠٧هـ.
– الكشف والبيان للإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ت ٤٢٧هـ، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– الأولى ١٤٢٢هـ.
– لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام على بن محمد بن إبراهيم، الشهير بالخازن ت ٧٤١هـ، ط دار الفكر– بيروت– ١٣٩٩هـ.
– اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي ت بعد ٨٨٠هـ، تحقيق/ عادل عبد الموجود، علي معوض، ط دار الكتب العلمية بيروت– الأولى ١٤١٩هـ.
– مجاز القرآن للإمام أبي عبيدة معمر بن المثنى ت ٢٠٣هـ، تحقيق/ محمد فواد سزكين، ط مكتبة الخانجي– القاهرة– بدون تاريخ.
– محاسن التأويل في التفسير للإمام محمد جمال الدين القاسمي ت ١٣٢٢هـ، تحقيق/ محمد باسل، ط دار الكتب العلمية– بيروت– الأولى ١٤١٨هـ.
– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ت ٥٤٦هـ، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي، ط دار الكتب العلمية بيروت– الأولى ١٤٢٢هـ.

– مدارك التنزيل للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ت ٧٠١هـ، تحقيق/ مروان الشعار، ط دار النفائس بيروت ٢٠٠٥م.
– مراج لبيد لكشف معنى القرآن المجيد للشيخ/ محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني، تحقيق/ محمد أمين، ط دار الكتب العلمية– بيروت ١٤١٧هـ.
– معالم التنزيل للإمام حسين بن مسعود البغوي ت ٥١٦هـ، ط دار طيبة للنشر والتوزيع– الرابعة ١٤١٧هـ.
– معاني القرآن وإعرابه للإمام إبراهيم بن السَّرِي الزجاج ت ٣١١هـ، ط عالم الكتب– بيروت– الأولى ١٤٠٨هـ.
– معاني القرآن للإمام يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧هـ، تحقيق/ أحمد نجاتي وآخرين، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة– بدون تاريخ.
– مفردات ألفاظ القرآن للإمام الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ، تحقيق/ محمد كيلاني، ط دار المعرفة– لبنان– بدون تاريخ.
– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام إبراهيم بن عمر البقاعي ت ٨٨٥هـ، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ.
– النكت والعيون للإمام على بن محمد بن حبيب الماوردي ت ٤٥٠هـ، تحقيق/ السيد عبد المقصود، ط دار الكتب العلمية– بيروت– بدون تاريخ.
– الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام علي بن أحمد بن محمد الواحدي ت ٤٦٨هـ، تحقيق/ صفوان عدنان، ط دار القلم– دمشق, الدار الشامية– بيروت– الأولى ١٤١٥هـ.
– الوسيط في تفسير القرآن المجيد للإمام علي بن أحمد بن محمد الواحدي ت ٤٦٨هـ، تحقيق/ عادل عبد الموجود وآخرين، ط دار الكتب العلمية– بيروت– الأولى ١٤١٥هـ.

ثالثاً/ كتب الحديث وعلومه:

– الجامع الصحيح للإمام محمد بن عيسى الترمذي ت ٢٧٩هـ، تحقيق الشيخ/ أحمد شاكر، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– بدون تاريخ.
– سنن الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ، ط دار الكتاب العربي– بيروت– بدون تاريخ.
– سنن الإمام علي بن عمر الدارقطني البغدادي، تحقيق/ السيد يماني، ط دار المعرفة– بيروت ١٣٨٦هـ.
– سنن الإمام محمد بن يزيد القزويني، المعروف بابن ماجة ت ٢٧٥هـ، تحقيق الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر– بيروت– بدون تاريخ.
– صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ، تحقيق/ محمد زهير، ط دار طوق النجاة– الأولى ١٤٢٢هـ.
– صحيح الإمام محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ت ٣٥٤هـ، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، ط مؤسسة الرسالة– بيروت– الثانية ١٤١٤هـ.

– صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيري ت ٢٦١هـ، تحقيق الشيخ/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– بدون تاريخ.
– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للإمام نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧هـ، ط دار الفكر بيروت ١٤١٢هـ.
– المستدرك للإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية– بيروت– الأولى ١٤١١هـ.
– مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١هـ، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط مؤسسة الرسالة– الثانية ١٤٢٠هـ.
– مصنف الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة ت ٢٣٥هـ، تحقيق/ كمال الحوت، ط مكتبة الرشد– الرياض– الأولى ١٤٠٩هـ.
– النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦هـ، تحقيق/ طاهر الزاوي، محمود الطناحي، ط المكتبة العلمية– بيروت ١٣٩٩هـ.

رابعاً/ كتب اللغة والمعاجم والدواوين الشعرية:

– إعراب القرآن للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ت ٣٣٨هـ، تحقيق د/ زهير غازي، ط عالم الكتب– بيروت ١٤٠٩هـ.
– إعراب القرآن وبيانه للشيخ محيي الدين الدرويش، ط دار الإرشاد بسوريا– بدون تاريخ.
– تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محمد بن محمد بن عبد الرزَّاق الحسيني، الملقَّب بمرتضى الزَّبيدي ت ١٢٠٥هـ، ط دار الهداية– بدون تاريخ.
– تهذيب اللغة للإمام أبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري ت ٣٧٠هـ، تحقيق/ محمد عوض، ط دار إحياء التراث العربي– بيروت– الأولى ٢٠٠١م.
– ديوان أبي نواس، ط مطعبة جمعية الفنون ١٢٠١هـ.
– ديوان امرئ القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف– القاهرة– بدون تاريخ.
– ديوان عنترة بن شداد، ط مطبعة الآداب– بيروت ١٨٩٣م.
– ديوان لُبَيْدِ بن ربيعة، ط دار المعرفة– بيروت– الأولى ١٤٢٥هـ.
– الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للإمام إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٣٩٣هـ، تحقيق/ أحمد عطار، ط دار العلم للملايين– بيروت– الرابعة ١٤٠٧هـ.
– فقه اللغة وسر العربية للإمام عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ت ٤٢٩هـ، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، ط دار إحياء التراث العربي– الأولى ١٤٢٢هـ.
– القاموس المحيط للإمام محمد بن يعقوب الفيروز ابادى ت ٨١٧هـ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ.
– لسان العرب للإمام محمد بن مكرم بن منظور ت ٧١١هـ، ط دار صادر– بيروت– الأولى– بدون تاريخ.
– المحكم والمحيط الأعظم للإمام علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٤٥٨هـ، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، ط دار الكتب العلمية– بيروت ٢٠٠٠م.

– مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت بعد ٦٦٦هـ، تحقيق/ محمود خاطر، ط مكتبة لبنان– بيروت ١٤١٥هـ.
– المصباح المنير للإمام أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ت ٧٧٠هـ، ط المكتبة العلمية– بيروت– بدون تاريخ.
– معجم مقاييس اللغة للإمام أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥هـ، تحقيق الشيخ/ عبد السلام هارون، ط دار الفكر ١٣٩٩هـ.
– المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، ط دار الدعوة– بدون تاريخ.
– المغرب في ترتيب المعرب للإمام أبي الفتح ناصر بن أبي المكارم الخوارزمي الشهير بالمطرزي ت ٦١٠هـ، تحقيق/ محمود فاخوري، عبد الحميد مختار، ط مكتبة أسامة بن زيد– حلب– الأولى ١٩٧٩م.
– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ، تحقيق د/ مازن المبارك، محمد علي، ط دار الفكر بيروت– السادسة ١٩٨٥هـ.
– همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ، تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، ط المكتبة التوفيقية– مصر– بدون تاريخ.

خامساً/ كتب التَّراجم والتَّاريخ والسِّيَر:

– طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١هـ، ط دار هجر– الثانية ١٤١٣هـ.
– العِبَرُ في خَبَرِ مَنْ غَبَرَ للإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨هـ، تحقيق/ محمد السعيد زغلول، ط دار الكتب العلمية– بيروت– بدون تاريخ.
– معجم البلدان للإمام ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ، ط دار الفكر– بيروت– بدون تاريخ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٧٣
مدخل لدراسة السورة الكريمة	٧٦
أولاً/ نزولها	٧٧
ثانياً/ عدد آياتها وكلماتها وحروفها	٧٨

ثالثاً/ ترتيبها	٧٨
رابعاً/ مناسبتها لِمَا قبلها	٧٨
خامساً/ مقاصدها وأغراضها	٨٠
تفسير السورة الكريمة	٨١
خَلْقُ الإِنْسَانِ فِي كَبَدٍ	٨٢
اغْتِرَارُ الإِنْسَانِ بِقُوَّتِهِ وَمَالِهِ	١٠١
نِعَمُ اللَّهِ -ﷻ- عَلَى الإِنْسَانِ	١٠٩
سُبُلُ النَّجَاةِ المُوَصِّلَةُ إِلَى السَّعَادَةِ	١١٥
كُفْرَانُ الآيَاتِ سَبِيْلُ الشَّقَاءِ	١٤٠
الخاتمة	١٤٥
فهرس المصادر والمراجع	١٤٧
فهرس الموضوعات	١٥٤

تم بحمد الله